اللهم

ما أعظمك

Bibliotheca Alexandrina
0023247

إلهى ما أعظمك !!

بقـــلم

دكتور القس فايز فارس

صدر عن دار الثقافة المسيحية ص ب ١٣٠٤ – القاهرة
جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز أن يستخدم اقتباس أو إعادة نشر أو طبع بالرونيو للكتاب أو أى جزء منه بدون إذن الناشر ، وللناشر وحده حق إعادة الطبع)
١٠ / ٤٢٧ ط (أ) ٨٦ / ٥
رقم الايداع بدار الكتب : ٤٤٣٦ / ٨٦
طبع بمطبعة : دار نوبار للطباعة – شبرا – القاهرة
تصوير الغلاف : الفنان فيليب الضعيف

دراسة لاهوتية عن
شخصية الله فى الكتاب المقدس

مقـــدمـة

عندما ظهر ملاك الرب لموسى فى صورة لهيب نار من وسط شجرة عليّقة وإذا بها تتوقد بالنار ولا تحترق ، قال موسى « أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم . لماذا لا تحترق العليقة » ... فناداه الله قائلاً : « لا تقترب إلى ههنا . اخلع حذاءك من رجليك . لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة » . (خروج ٣) .

لعل هذا هو موقف الكاتب وهو يقترب من موضوع هذه الدراسة ... يتنازعه خليط من المشاعر والأحاسيس بين الرغبة والرهبة ، وبين التطلع والإحجام ... فمن هو الإنسان حتى يجترىء على أن يفكر فى خالق الفكر ، ومبدع الوجود !!

لكن الإنسان يعاود التأمل فيما أعطاه هذا الإله عينه ، من قدرة عقلية تميزّه عن سائر الكائنات الأخرى ، ويرى أنه وإن لم يكن قادراً أن يستوعب حقيقة الله ، فهو على الأقل يقدر أن يتأمل فيها ليزداد

احساساً وانبهاراً بعظمة الله ، ازاء قصور الإنسان ، فيمجد الله مع المرنم القديم إذ قال :

« أيها الربُّ سيّدنا ما أمجد اسمك فى كل الأرض
حيث جعلت جلالك فوق السمٰوات ...
إذا أرى سماواتك ، عمل أصابعك
القمر والنجوم التى كوّنتها
فمن هو الإنسان حتى تذكره
وابن آدم حتى تفتقده
وتنقصه قليلاً عن الملائكة
وبمجد وبهاء تكلله ... »

(مزمور ٨)

هذا فضلاً عن أن الاعتقاد بإله هو جوهر التدين ، وفكرة الإنسان عن هذا الإله تحدد أسلوب تدينه وحياته . فالناس أو أغلبهم يعتقدون بوجود قدرة إلهية على شكل من الأشكال ، تربطهم بها رابطة معينة ، ويلتزمون ازاءها بنوع من السلوك . وعقيدة الإنسان فى طبيعة الإله الذى يعبده ، تؤثر بشكل واضح فى سلوك الإنسان وعلاقاته المختلفة . فمن يعتقد فى وجود آلهة يحارب بعضها بعضاً ، وينتقم بعضها من بعض ، يختلف فى سلوكه عمّن يعتقد بإله عادل يضبط الكون وفق نظام دقيق . ومن يعتقد بإله قاس رهيب مستبد

يختلف عمن يعتقد بإله محب رحيم عطوف . وعندما ندرس تاريخ الديانات فى المجتمعات الإنسانية على مدى العصور ، نرى ممارسات عجيبة ، وأعمالاً متنوعة مورست باسم الآلهة . فهناك من قدموا أطفالهم وفلذات أكبادهم ضحايا للنار أو للماء من أجل استرضاء الآلهة ؛ وهناك من مارسوا أنواعاً من البغاء والفجور باسم الآلهة ؛ وهناك من حاربوا وقتلوا غيرهم باسم الآلهة ؛ وهناك من قاموا بروائع الأعمال وأعظم التضحيات من أجل آلهتهم ...

والفرق بين أنواع السلوك التى تظهر فى حياة الناس ، يرجع – إلى حد كبير – إلى عقيدتهم فى طبيعة الإله الذى يعبدونه .

ولذلك كان من الضرورى أن لا نكتفى بمجرد البرهنة على وجود إله فى هذا الكون ، بل أن الأهم من ذلك هو محاولة البحث عن طبيعة هذا الإله ، وصفاته ، وعلاقته بالإنسان .

وهذا ما نرجو أن نتقدم إليه بعون الله فى هذه الصفحات .

دار الثقافة

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
أولاً : العقيدة الإلهية بين الدين ، والفلسفة ، وعلم اللاهوت	
١ – الدين والتدين	١٥
٢ – الفلسفة	٢١
٣ – علم اللاهوت	
ثانياً : صور من تجليات الله للبشر فى العهد القديم .	
تمهيد	٣٧
١ – وجه الله	٤٥
٢ – صوت الله أو كلمة الله	٥١
٣ – مجد الله	٥٧
٤ – ملاك الله	٦١
٥ – روح الله	٦٥
ثالثاً : تطور العقيدة الإلهية فى العهد القديم	
العقيدة الإلهية فى عصر ما قبل الأنبياء	٧٦

العقيدة الإلهية فى عصر الأنبياء ٩٦
العقيدة الإلهية فى عصر ما بعد السبى ١٠٧

رابعاً : شخصية الله فى العهد الجديد ١١١
١ – الله الآب ١١٥
٢ – الله الملك ١١٥
٣ – الله واحد فى ثلاثة أقانيم ١٤٢

خامساً : صفات الله وسلوك الإنسان ١٧٣

١

العقيدة الإلهية بين الدين ، والفلسفة وعلم اللاهوت

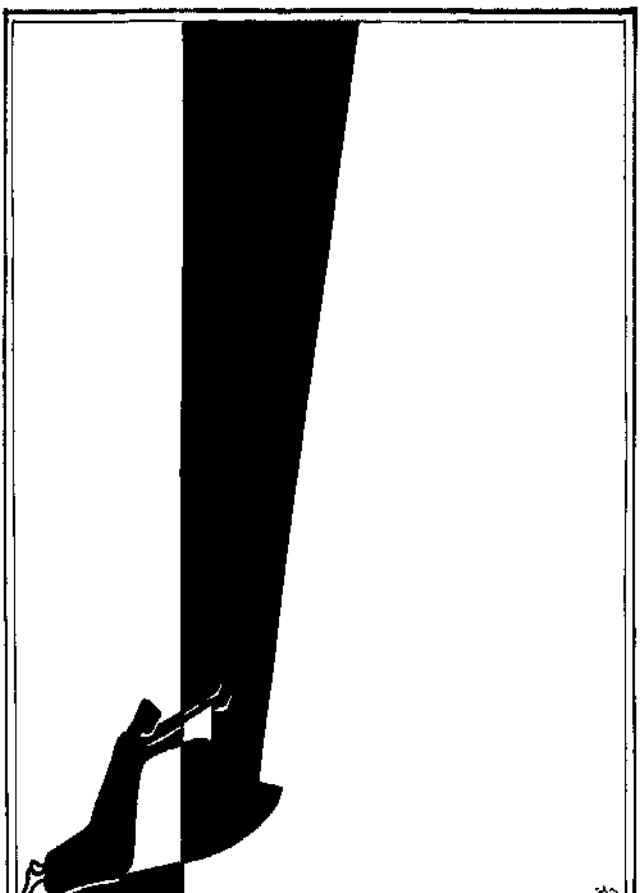

عندما يفكر إنسان ما فى « الله » أو فى « العقيدة الإلهية » ، فانه يتعرض لثلاثة اتجاهات أو أساليب فى التفكير وهى الدين ، وعلم اللاهوت ، والفلسفة . وكل واحد من هذه الاتجاهات يعالج موضوع العقيدة الإلهية من زاوية تختلف عن الزاوية التى يعالجها منها الاتجاه الآخر .

فالدين يعطى للناس فكرة الله أو العقيدة الإلهية ذاتها ، ويرتبط بالممارسات المختلفة التى يمارسها الإنسان تعبيراً عن تدّينه .

وعلم اللاهوت ينظّم ويفصّل محتويات هذه العقيدة ويشرحها فى ضوء الوحى المفترض نزولِه أو تبليغه للإنسان من هذا الإله بشكل أو بآخر . بمعنى أن علم اللاهوت يفترض وجود وحى أو مسلمّات معينة ، على أساسها يبحث الإنسان فى العقيدة الإلهية .

أما الفلسفة فتضع الأسس العقلية لفكرة العقيدة الإلهية وتبين علاقتها باختبارات البشر .

ولو أننا سرنا بحسب الترتيب المنطقى المعتاد ، فاننا نرتب هذه الاتجاهات الثلاثة كالآتى :

أولاً : الفلسفة التى تبرهن على وجود الله عقلياً وفلسفياً .

ثانياً : علم اللاهوت الذى يشرح طبيعة هذا الإله فى ضوء الوحى المبّلغ منه .

ثالثاً : الدين وهو تطبيق نتائج هذه العقيدة فى ممارسات دينية معينة .

لكننا لو نظرنا إلى الواقع التاريخى فى اختبارات البشر ، لوجدنا أن ذلك الواقع مخالف ومغاير لهذا الترتيب تماماً .

فإن أول اختبارات البشر هو التدين ، وربما يليها الفكر الفلسفى والعقلى ، أما علم اللاهوت فهو حديث إلى حد ما .

— ١ —

الدين والتدّين

التاريخ يبدأ بالديانة والتدين ، ذلك لأن البشر منذ فجر التاريخ مارسوا عبادتهم للآلهة قبل أن يفكروا فى هذه العقيدة لاهوتياً ، وقبل أن يحاولوا البرهنة على هذه العقيدة عقلياً وفلسفياً .

وقد كان للعقيدة الدينية أثر خلاق فى حياة الناس عملياً وفنياً ووجدانياً ، ومن الدين والتدين نبعت فنون وآداب كثيرة على مر التاريخ . ويكفى أن ننظر إلى هندسة الأهرام ، وفنون قدماء المصريين فى النحت والنقش ، والآداب اليونانية ، والرسوم والصور الرومانية ، والموسيقى بأنواعها عند مختلف الشعوب ، لنرى أن كل هذه العلوم والفنون والآداب كانت من وحى الأديان .

وهكذا نرى أن الاختبار الإنسانى كان سابقاً للفكر ، سواء الفلسفى منه أو اللاهوتى .

ومن يتتبع الفكر الدينى فى تاريخ البشرية يجد اعتقادات متنوعة ، ومختلفة المستويات ، فى العقيدة الإلهية . وتتدرج هذه الاعتقادات وترتقى . ونذكر منها :

(١) مذهب حيوية المادة : (Animism)

وهو الاعتقاد البدائى البسيط بأن كل شيء فى الكون روحاً أو نفساً تؤثر فى العالم المادى . وهذه هى عقيدة البدائيين جداً فى التفكير إذ يعتقدون أن العالم ملىء بأرواح كل الأشياء ... وقد نجد بعض آثار هذا التفكير البدائى فى تقاليد بعض الشعوب .

(٢) الأصنامية : (Idolatry)

وفيها يعبد الناس آلهتهم فى رموز من التماثيل أو الأشكال أو الأشجار أو الحيوانات .

(٣) مذهب تعدد الآلهة : (Polytheism)

وهو الاعتقاد بوجود عدّة آلهة فى الكون ، كعقيدة اليونان القديمة ، وقدماء المصريين .

(٤) مذهب وحدة الوجود : (Pantheism)

وخلاصته أن الله والطبيعة شيء واحد ، وأن الكون المادى والإنسان ليسا سوى مظاهر للذات الإلهية ، فالله فى كل شيء ، وكل شيء فى الله ، أو هو الله أو الطبيعة .

(٥) مذهب وجود إلهين : (Deism)

وهو غالباً يشمل الاعتقاد بوجود إله للخير وإله للشر ، كما فى بعض الديانات الفارسية والهندية . وقد نشأ هذا المذهب لإمكان التوفيق بين فكرة وجود إله صالح وبين وجود الشر فى العالم .

(٦) مذهب وحدانية الله : (Monotheism)

وهو الاعتقاد بوجود إله واحد . إلا أن الاعتقاد بوحدانية الله لا يمنع من وجود اختلافات بين أصحاب هذا المذهب فى طبيعة هذا الإله وصفاته وعلاقته بالبشر .

ليس ما ذكرناه الآن حصراً أو ترتيباً أو مناقشة للمذاهب المختلفة فى العقيدة الإلهية ، إنما ذكرنا نماذج فحسب ، لبيان اختلاف النظرة فى العقيدة الإلهية ، وليس هدفنا مناقشة هذه النظريات ، إنما سردناها هنا على سبيل العرض فحسب .

ونستطيع هنا أن نقتبس قول بولس الرسول وهو يكتب لأهل كورنثوس عندما كان يناقش مسألة أكل اللحم المذبوح باسم الأوثان ، إذ قال :

« فمن جهة أكل ما ذبح للأوثان ، نعلم أنه ليس وثن فى العالم ، وأن ليس إله آخر إلا واحداً . لأنه وإن وُجد

ما يُسمّى آلهة سواء كان فى السماء أو على الأرض ، كما يوجد آلهة كثيرون وأرباب كثيرون . لكن لنا إله واحد الآب الذى منه جميع الأشياء ونحن له . ورب واحد يسوع المسيح الذى به جميع الأشياء ونحن به » .

(١ كو ٨ : ٤ - ٦)

إن النزعة الفطرية عند الإنسان التى تدفعه للتدين ، هى الاختبار الإنسانى الأول ، وفى مراحل البشرية المتقدمة تطوّر الفكر الدينى ، واتخذت العقيدة الإلهية صوراً مختلفة كما أوجزنا من قبل ، وكل هذه الاختبارات الإنسانية لم تكن وليدة تفكير فلسفى أو تأمل عقلى ، بل كانت نوعاً من الوعى الإنسانى الفطرى .

والكتاب المقدس لا يحاول أن يقدم لنا أدلة عقلية على وجود الله ، لكنه يفترض وجود الله كحقيقة وبديهية لا تحتاج إلى برهان . وأول آية فى الكتاب المقدس تقول : « فى البدء خلق الله السمٰوات والأرض » (تك ١ : ١) . وحديث الكتاب المقدس عن الله ، نجده مكتوباً بلهجة اليقين والسلطان ، مثل : « هكذا قال الرب ... » ، « وأمر الله ... » « وأرسل الله .. » « وأعدّ الله ... » ذلك لأن تعليم الكتاب المقدس عن الله ليس نتيجة لأسلوب استقرائى أو قياسى من الأساليب المنطقية العقلية ، ولكنه

تعليم يفترض سلطان الله . إن وجود الله ليس موضوع نقاش وجدل فى الكتاب المقدس . وربما كانت صفات الله موضوع مناقشة فى الكتاب ، فقد يكون وجود الشر فى العالم سبباً فى تساؤلات بعض الأشخاص فى أوقات ضعفهم وحيرتهم عن عدالة الله أو قدرته . لكن وجود الله ليس موضوع أى تساؤل فى الكتاب المقدس .

وفى بعض المواضع فى الكتاب المقدس ، نرى محاولات لاستنتاج بعض صفات الله من النظر إلى مخلوقاته ، للرد على من يتشككون فى صفاته ، كما ورد فى مزمور ٩٤ مثلاً : « يقتلون الأرملة والغريب ويميتون اليتيم . ويقولون الرب لا يبصر وإله يعقوب لا يلاحظ . افهموا أيها البلداء فى الشعب ويا جهلاء متى تعقلون ؟ الغارس الأذن ألا يسمع ؟ الصانع العين ألا يبصر » .
(مز ٩٤ : ٦ ؛ ٩)

فالكتاب المقدس لا يقدّم أدلة على وجود الله ، لكنه يروى تاريخاً واقعياً عن عمل الله فى العالم وتعامله مع البشر ، وكيف أن الإنسان لن يجد إشباعاً لنفسه وروحه دون أن تكون له شركة مع هذا الإله . هذه الشركة ذاتها هى المعرفة القلبية لله ، أو الوعى به ، وهى الدليل الشخصى المباشر على وجود الله ، فيستطيع الإنسان أن يقول : « أنا اؤمن أنه يوجد إله لأنى أعرفه وأختبره فى صلاتى

وتأملاتى وأشعر بحضوره معى » .

وفى نفس هذا الاتجاه الفكرى يقول الكاتب الشهير الأستاذ عباس محمود العقاد إن مسألة وجود الله مسألة « وعى » قبل كل شىء . فالإنسان له وعى يقينى بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ، ولا يخلو من « وعى » يقينى بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية ، لأنه متصّل بهذا الوجود بل قائم عليه . ويذكر العقاد أن الوعى والعقل لا يتناقضان ، وإن كان الوعى أعمّ من العقل فى ادراكه ، لأنه مستمد من كيان الإنسان كله ومن ظاهره وباطنه ، وما يعيه هو وما لا يعيه .

— ٢ —

الفلســـــفة

على أن الفلاسفة قد درجوا على وضع بعض الأدلة العقلية لاقناع المتشككين في حقيقة وجود الله . هذه الأدلة ليست للبرهنة على حقيقة وجود الله للمتدينين ، ولكنها محاولة عقلية يستخدم فيها الإنسان عقله لتأييد وتأكيد ما يوقن به بالوعى والوجدان . وسنرى فيما بعد أن الله سبحانه وتعالى أسمى وأعظم وأوسع من أن يحيط به العقل أو يدركه الفكر الإنسانى القاصر . وأشهر الأدلة المعروفة فى الفكر الفلسفى أربعة :

(١) برهان الخلق Cosmological Argument

وخلاصة هذا البرهان أن كل شيء له صانع أو كل معلول له علة أو سبب ؛ لذلك إذا رجعنا بالأشياء والظواهر إلى أسبابها الأولى وصلنا فى النهاية إلى ضرورة وجود علة العلل ، أو السبب الأول للوجود وهو الله أو المحرك الأول أو المحرك الذى لا يتحرك .

وعلى أساس هذا النوع من الأدلة يقدم المفكرون أمثلة متنوعة ، منها اننا إذا وجدنا سفينة فى ميناء ما ، فلا بد أننا ندرك بداهةً أن للسفينة قائداً قادها إلى الميناء ، وأنه لا بدّ أن صانعاً أو

مجموعة من الصناع جمعوا أجزاءها وربطوها معاً بكيفية تضمن لها أن تطفو فوق الماء وتسير عليه . وليس من المعقول أن الصدفة أوجدت مواد السفينة معاً على النمط الموجود في السفينة .

وللرد على من يتصورون أن تكوين الخلائق جاء وليد المصادفة وتقابل العناصر بعضها مع بعض بنسب محددة ، يورد العلماء مثلاً مشهوراً لبيان أن الصدفة لا يمكن أن تنتج عالماً منسقاً منظماً مثل عالمنا هذا . فنحن نعرف أن الحروف الأبجدية عندنا هي ٢٨ حرفاً من الألف إلى الياء . ولكي نكوّن كلمة واحدة مثل (كتب) علينا أن نختار حرف (ك) ثم نتبعه بحرف (ت) ثم حرف (ب) على الترتيب . يقول العلماء إننا لو أحضرنا طفلاً لا يعرف الحروف ، أو قرداً دربناه على أن يستخدم الآلة الكاتبة وجعلناه يلعب بيديه على الآلة الكاتبة ، فيا ترى بعد كم من ملايين السنين يستطيع أن يخرج لنا (بالصدفة) صفحة كاملة من كتاب ، أو قصيدة شعرية معينة ... إن مجرد التفكير في هذا ، يؤكد أن الصدفة لا يمكن أن تجمع عناصر هذا الكون بالكيفية التي نراها الآن .

(ب) برهان القصد أو الغاية Teleological Argument

وملخص هذا البرهان أن المخلوقات تسير نحو قصد معيّن ،

لتحقق هدفاً معيناً . فلو أن الأرض كانت أقرب إلى الشمس مما هى عليه ، ولو قليلاً ، لاحترقت وصارت الحياة عليها مستحيلة ، ولو أنها كانت أبعد قليلاً مما هى الآن ، لتجمدت وصارت الحياة عليها غير ممكنة أيضاً . ومن ينظر إلى جسم الإنسان يرى كل عضو فى مكانه يحقق غايةً معينة ، وكل اختراعات الإنسان الحديثة ما هى إلا تقليداً لأعضاء فى جسم الإنسان ، فآلة التصوير تقليد للعين ؛ والميكرفون تقليد للأذن ؛ والمضخة تقليد للقلب ، وهكذا ...

وعندما نتأمل فى عالم الحيوان والنبات نرى نظاماً عجيباً فريداً يبهر العقل الإنسانى ... فلا بد من وجود عقل كبير وضع خطة هذه الكائنات وهدفها .

كتب الدكتور مصطفى محمود الصحفى والكاتب المعروف يصف المخرج فى احدى الروايات السينمائية فقال :

« كل شىء من اختصاص المخرج حتى موديلات الأزياء ، فالأزياء ليست مجرد أزياء ، إنها ايحاءات بمعان وأفكار وحالات نفسية ، فلا بد أن يرسمها المخرج ويخططها كما يخطط كل منظر » ... ثم عاد واستطرد قائلاً : « والذى يرى المخرج يعمل ، يشعر بالاشفاق ويسأل نفسه : إذا كان خلق منظر واحد لمدة دقيقتين يحتاج إلى كل هذا العرق ، فما بال خلق كون لا نهائى ،

فيه ما لا نهاية من المناظر ، فى ما لا نهاية من الزمن ... هل يمكن أن يكون مثل هذا الكون عشوائياً ابن صدفة ، بلا نسب ولا أصل ولا مخرج ؟!! إذا كان وُلِد اتفاقاً بلا خطة وبلا نظام ، فما سر ما فيه من نظام وقوانين تنظمّ ظواهره جميعها ؟ » .

« طول الوقت » – كما يقول الكاتب – « وأنا عينى على مخرج روايتى فى السينما ، كانت عينى الداخلية على ذلك المخرج الآخر ... المخرج الخفى الذى رتب خريطة الكون الكبير وسوّى أراضيه وسماواته وستائره الشفيفة من السحب والغيوم ، وأقام هذه الديكورات الفلكية الهائلة ، وأطلق النجوم الدوّارة والسُدّم والمذنبات والشهب ، والألعاب النارية الهائلة فى ذلك المحفل الأبدى الذى اسمه الدنيا » . ألا نجد أنفسنا نهتف تلقائياً مع من قال : « قال الجاهل فى قلبه ليس إله !! » « السمٰوات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه » .

(جـ) برهان الوجود أو المثل الأعلى

Ontological Argument

وخلاصة هذا البرهان هو أن وجود فكرة الله ما كان يمكن أن تخطر على عقل الإنسان ما لم يكن لها أساس فى حقيقة خارج الإنسان ومتميزة تماماً عنه . إن امكانية تصوّر وجود إله ، لا يمكن

أن تكون بدون أساس ، ووجود هذه الفكرة نابع من وجود الله وراءها . وقد قال القديس « أنسلم » Anselm « أنا أؤمن حتى أستطيع أن أفهم » . فالفكر الإنسانى دائماً يتطلع إلى شيء أسمى منه ، والعقل الإنسانى كلما تصوّر شيئاً عظيماً ، وجد نفسه يتصوّر ما هو أعظم ، وكل شيء يتطلع إلى ما هو أكمل منه ويسعى إليه . فلا بد إذاً من موجود كامل مطلق ، يكون تصوّرنا له أقل من حقيقته ، وهذا هو الله . ولو أننا أنكرنا هذه الحقيقة نكون قد أنكرنا كل مجال التفكير الإنسانى .

(د) برهان الاخلاق The Moral Argument

وهذا البرهان ينبع من شعور الإنسان الفطرى بالالتزام الاخلاقى ؛ فالإنسان يختلف عن الحيوانات مهما كان ذكاؤها ، فى أنه يشعر بأنه « ينبغى » عليه أن يعمل بعض الأعمال ، وأنه « ينبغى » عليه أن يمتنع عن بعض الأعمال الأخرى . هذا الشعور بالالتزام يفترض وجود سلطة أخلاقية تحكم على الإنسان ، ولا يمكن أن تكون داخله بل منبعها من كيان خارج عن الإنسان ... بل لا بد من وجود مثال أعلى للخير والحق والجمال تتجه نحوه حياة الإنسان ... وهذا هو الله ...

هذه الأدلة الأربعة من الأدلة الشائعة التى يستخدمها الفلاسفة

لتأكيد وجود الله لمن يشكون فى ذلك ؛ وكما أشرنا من قبل ، إننا لو دققنا النظر فيها لوجدناها رغم وجاهتها ومنطقيتها ، أبسط من أن تتعرض لحقيقة وجود الذات الإلهية ؛ ذلك لأنها تبرهن على هذه الحقيقة من واقع وجود الكون والمخلوقات والذات الإنسانية ؛ وكأنما يستخدم الإنسان منطق الأطفال فيقول : « ما دام الكون موجوداً ، ولكل موجود سبب ، فلا بد من سبب لهذا الكون ، هو الله » أو « ما دمت موجوداً ، فلا بد من أن قدرة ما أوجدتنى ، هذه القوة هى الله » .

والواقع أن وجود الله أسبق وأصدق من وجود الكون ، ومن وجود الإنسان . والله أعظم وأشمل من العقل ، لذلك يكون من السذاجة أن نحاول اثبات وجود هذا الذى لا يمكن ادراكه لأنه فوق الادراك ، باستخدام آلة الادراك الإنسانى وهى العقل البشرى .

ولقد أثبت التاريخ أن الفكر الإنسانى عاجز عن ادراك حقيقة الله ، وحتى لو استطاع الإنسان أن يتلمس طريقه إلى هذه المعرفة ، فانه فى حاجة إلى اعلان من الله ذاته لكى يعرف شيئاً عن الله ؛ وهذا هو الدور الذى يقوم به الوحى أو الاعلان . من هنا جاء علم اللاهوت لكى يشرح حقيقة الله كما أعلنها الله نفسه بالوحى .

على أن هناك بعض الفلاسفة الذين اقتربوا من علماء اللاهوت فى الفكر وأشاروا إلى عدم امكانية معرفة الله بالعقل ، ولذلك كان تعريفهم للذات الإلهية مرتبطاً بهذا المعنى . فقد قال هربرت سبنسر : إن « الله هو السبب غير المعروف وغير الممكن معرفته لكل هذا الكون والقوة الغامضة المعلنة لنا فى جميع الظواهر » .

وقد تأثر كثيرون من آباء الكنيسة اليونانيين وآباء كنيسة الاسكندرية بهذا المعنى وربطوه بأسلوب التعبد لله ، وقالوا إن الله مهوب لا يمكن الاقتراب منه أو الوصول إليه . وإن طبيعة الله ومجده يفوقان الوصف وهما أقدس من أن يذكرهما الإنسان ... وقال القديس باسيليوس Basil « إننا عندما نحاول أن نفهم الله سنظل دائماً بعيدين عن الفهم الكامل ونقف عاجزين ، لذلك فدليل اكرامنا لله هو أن نصمت ونخشع . وقال القديس أثناسيوس والقديس باسيليوس إن الله لا يُعرَف إلا بالله نفسه . فالله فى النهاية هو الذى يشهد لنفسه ، وروح الله هو الذى يفحص أعماق الله ، لذلك لا يمكن أن نفهم شيئاً عن الله إلا باعلان الروح القدس الذى هو الله نفسه .

وقد كان من بين نقاط الخلاف بين آريوس وأثناسيوس فى القرن الرابع الميلادى ، أن آريوس قال : « إن ما لا يفهمه الإنسان لا يمكن أن يكون صحيحاً » وعلى هذا الأساس أنكر آريوس

لاهوت المسيح ، بينما قال أثناسيوس إن تعليم الكتاب المقدس عن الله لا يمكن مقارنته بتعليم بشرى ، وإن الله فى ذاته لا يمكننا فهمه ، وأفكارنا لا تستطيع أن تستوعبه أو تقترب إليه ، لكنه رضى أن يأتى إلينا فى ضعفنا ويفدينا فى اتضاع يسوع المسيح .

– ٣ –

علـم اللاهــوت

عندما نفكر فى اللفظ الذى نطلقه على هذا العلم نرى أنه مأخوذ من لفظ الجلالة نفسه « الله » وهو فى الانجليزية Theology من Theos وهى كلمة فى اليونانية واللاتينية معناها « الله » . لذلك فعلم اللاهوت هو علم يبحث فى الله وصفاته وشريعته وأعمال عنايته والتعاليم التى يوجب اعتقادها ، والأعمال التى يوجب القيام بها .

وقد قسم بعض الباحثين علم اللاهوت إلى قسمين :

١ – علم اللاهوت الطبيعى ، وهو أقرب إلى الفلسفة ، لأنه يستخلص حقائقه من الطبيعة دون الوحى .

٢ – علم اللاهوت الكتابى أو الوحيى ، وهو الذى يستخلص

حقائقه مما جاء فى أسفار الوحى . وهذا هو الذى يعنينا فى هذه الدراسة . فمع أنه من الممكن أن تكون لدى الإنسان فكرة عن الله من مجرد التأمل العقلى والنظر فى الطبيعة والمخلوقات على حد تعبير المرنم :

« السموات تحدث بمجد الله
والفلك يخبر بعمل يديه » (مز ١٩ : ١) .

وكذلك قول بولس الرسول بأن أمور الله غير المنظورة مثل قدرته السرمدية ولاهوته ، تُرَى منذ خلق العالم مُدرَكةً بالمصنوعات (رو ١ : ١٩ - ٢١) ، إلا أن هذه الإعلانات الطبيعية ليست كافية لتمنح الإنسان المعرفة الكافية بالله ، التى تقود الإنسان إلى الخلاص من الشرّ واتباع الحياة الصالحة ، فمن المستحيل على الإنسان أن يعرف بقوى عقله ، ومن الطبيعة ، كيف يمجد الله ويتمتع به ، لأن ذلك يقتضى معرفة صفات الله ، وهذه المعرفة تفوق قدرة البشر ، لذلك فقد أعلنها عن طريق الوحى .

ومن يدرس تاريخ التفكير الإنسانى يستطيع أن يتأكد من أن كبار المفكرين والفلاسفة عجزوا عن أن يجدوا أجوبة شافية لبعض المشكلات المتصلة بالله . فقد قال « سولون » : « إن قصد الآلهة مكتوم تماماً عن البشر » - وقال سقراط : « إن كل معرفة

صحيحة بالآلهة يجب أن تعلنها لنا الآلهة » . وقال أفلاطون : « ليس لنا أن نعرف الحقائق إلا من الآلهة أو من أنبياء الآلهة ، وليست هناك وسيلة نعرف بها إرادة الآلهة إلا بنبى يعلنها لنا . فإن عقل الإنسان يحتاج إلى الإنارة الإلهية لفهم ما يتعلق بالله كما تحتاج العين إلى نور الشمس لترى الموجودات » .

على هذا الأساس نحن نبنى دراستنا هذه على ما جاء فى الكتاب المقدس عن الله ، فتكون دراستنا لاهوتية كتابية ... ومع أننا لا نستطيع أن نغفل أفكار عقولنا فى أثناء الدراسة ، لكننا فى النهاية يجب أن نعترف بقصور تفكيرنا ونقبل بالإيمان كلام الله المعلن لنا فى الكتاب .

ومن المعتاد أن يلجأ الراغبون فى معرفة حقيقة ما ، إلى محاولة تعريفها ، أو بيان ماهيتها ... وإن صحَّ هذا على موضوعات وأشياء كثيرة ، فانه قد لا يفى بالغرض عندما نكتفى بمجرد تعريف « ما هو الله ؟ » أو « من هو الله ؟ » – ولنلاحظ أن مجرد اقترابنا من السؤال نفسه أوقفنا أمام ضرورة الاقرار بجزء من الجواب فى السؤال نفسه . فإن مجرد استخدامنا للكلمة « من » بدلاً من « ما » معناها أننا قد اعترفنا بصفة من صفات الله وهى صفة « الشخصية العاقلة » التى تستخدم لها كلمة « من » فى اللغة العربية .

فى كتاب أصول الإيمان المختصر ، يُعرَّف الله بأنه : « روح

غير محدود سرمدى غير متغير فى وجوده وقدرته وقداسته وعدله وجودته وحقه » .

وفى كتاب أصول الإيمان المطوّل يُعرَّف الله بأنه : « روح غير محدود فى ذاته ومن ذاته فى وجوده ومجده وغبطته وكماله ، كاف للكل ، سرمدى ، غير متغيّر ، غير مُدْرَك ، حاضر فى كل مكان ، قادر على كل شىء ، عالم بكل شىء ، حكيم ، قدوس ، عادل ، رحيم ، رؤوف ، بطىء الغضب وكثير الإحسان والمراحم » .

وكما نعلم من دراسة المنطق أن التعريف الجامع المانع هو الذى يعاون تفكيرنا على تصوّر الشىء المعرَّف تصوّراً كاملاً ، فلا يسمح التعريف لنا أن نتصور شيئاً غيره ، وبذلك يسمّى « مانعاً » ، ولا يسمح التعريف لنا أن نغفل صفة من صفات الشىء المعرَّف وبذلك يسمى « جامعاً » ... ونحن عندما نقرأ التعريف السابق عن الله ، نرى أنه يشتمل على أشياء كثيرة من الصعب على عقولنا أن تتصورها ؛ فمثلاً نحن نحيا فى عالم محكوم بالزمن لذلك يستحيل علينا أن نتصوّر معنى الأزلية والأبدية ، ونحن نحيا فى حدود معينة محكومة بالمكان ، فيصعب علينا أن نتصور معنى « عدم المحدودية » ؛ ونحن نحيا فى عالم مادىّ ، فيستحيل علينا تجريد معنى الروحانية من المادية ... وفوق الكل فإن التعريف نفسه يؤكد لنا أن الله « غير مُدْرَك » ...

فماذا يمكننا أن نفعل إزاء هذا الموقف ؟ الواقع أننا يجب أن نعترف بأننا لا نستطيع أن نحتوى فكرة الله فى عقولنا ، فالله جلَّ جلاله يحتوينا ولا نستطيع أن نحتويه ، ويعرفنا ولا نستطيع أن نعرفه كمال المعرفة ، فخير لنا أن نتواضع قدامه ، ونكتفى بأن ندرس شيئاً عنه فحسب ، مثل تجلياته ومعاملاته وألقابه وأسمائه وصفاته كما تظهر لنا فى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ، ومن هذه الدراسة نستطيع أن نفهم شيئاً عن الله ، دون أن ندَّعى أننا قد فهمنا الله وأدركناه ... فهو « غير مُدْرَك » ...

وما أشبهنا فى هذه الحال بموسى النبى عندما طلب أن يرى مجرد مجد الله فقال لله : « أرنى مجدك » (خروج ٣٣ : ١٨) ، فكان ردّ الله عليه : « لا تقدر أن ترى وجهى ، لأن الإنسان لا يرانى ويعيش ... هو ذا عندى مكان ، فتقف على الصخرة ، ويكون متى اجتاز مجدى أنى أضعك فى نقرة من الصخرة ، وأسترك بيدى حتى أجتاز ، ثم أرفع يدى فتنظر ورائى ، وأما وجهى فلا يُرى » (خر ٣٣ : ٢٠ : ٢٣) .

ومعنى هذا أن أقصى ما نستطيع أن نعرفه عن الله هو آثار عمله وتعاملاته فى التاريخ وفى العالم الذى هو هيكل قدس الله ،

« الرب فى هيكل قدسه
فاسكتى قدامه يا كلَّ الأرض ... » (حبقوق ٢ : ٢٠)

وإذ يكون لنا هذا الاتجاه الخاشع المتعبد المتأمل ، نحو الله ، عندئذ نتعرف اختبارياً بالله أكثر مما نعرف عقلياً عنه ، وندرك أننا قد عُرفنا من الله ، وصارت لنا علاقة وشركة معه ، في شخص من أرسله لفدائنا الرب يسوع المسيح ، وبالروح القدوس الساكن فينا ، وبذلك تكون لنا الحياة ، بل الحياة الأبدية ، لأنه « هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته » (يو ١٧ : ٣) .

٢

صور من تجليّات
الله للبشر فى العهد القديم

تمهيـــــد

عرفنا أن الله روح غير محدود وغير مُدْرَك ، فهو يفوق ادراكنا البشرىّ القاصر . لكننا رغم ذلك نريد أن نعرف شيئاً عن هذه الذات الإلهية ، لأنه من طبيعة عقولنا الإنسانية التطلع إلى المعرفة والسعى وراءها .

ولقد ذكرنا أنه فى الوقت الذى لا يستطيع الإنسان بفكره وادراكه واستخدام عقله وملكاته أن يعرف صفات الله ، فإن الله يعلن ذاته للبشر بطرق متنوعة ، والناس إذ يتلقون هذا الاعلان ، يعرفون شيئاً عن الله ، أو بالأحرى يختبرون فى حياتهم أثر هذا الإله وعمله وتعاملاته معهم ومع غيرهم . وطبيعىّ أن الإنسان يعبّر عن اختباره باللغة العادية التى يستخدمها فى حياته ا ليومية . وهنا نجد أنفسنا نواجه صعوبتين على الأقل :

الأولى : هى قصور اللغة وعدم قدرة الكلمات على أن تعبّر عن اختبار الإنسان لله .

والثانية : هى تنوع اختبارات الناس لله ، بحيث لا نجد هذه الاختبارات متشابهة عند جميع الناس . ويليق بنا أن نشرح هاتين الصعوبتين .

فالصعوبة الأولى : هى أن البشر لا يملكون أسلوباً للتعبير عن ذواتهم واختباراتهم ونقلها إلى الغير إلا اللغة التى تعلموها والتى ترتبط باختباراتهم فى العالم المادى الحسّى المحدود . وحتى المشاعر والاحساسات التى يشعرون بها ، يضطرون أحياناً أن يستخدموا لها ألفاظاً مستعارة من الأوصاف الحسيّة والمادية للأشياء . فمن يسمع خبراً مفرحاً مفاجئاً يقول : « قفز قلبى من الفرح » أو « انشرح صدرى » ، مع أن القلب لم يتحرك من مكانه ، والصدر لم ينفتح لينشرح ، وآثار الفرح تعمّ كيان الإنسان النفسى كلّه ، وليست قاصرة على القلب أو الصدر فقط . ومن يرى منظراً مخيفاً يقول : « جمدت دمائى فى عروقى » أو « انخلع قلبى » ، مع أن الدم يظل فى درجة حرارته العادية فى الأوردة والشرايين ، والقلب يكون ثابتاً فى مكانه فى القفص الصدرى .

على نفس النسق يجب أن ننظر إلى التعبيرات التى تصف اختبارات البشر عن الله ، فالناس يعبّرون عن شعورهم بالله بلغة يستعيرونها من العالم المنظور ... لذلك يجب أن نميّز بين استخدامنا للغة فى حديثنا العادى ، وبين استعمال ألفاظ نفس اللغة

فى الحديث عن الله .

فعندما يقول إشعياء مثلاً فى الأصحاح السادس من سفره : « فى سنة وفاة عزيا الملك رأيت السيد الرب جالساً على كرسىّ عال ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل . السرافيم واقفون فوقه لكل واحد ستة أجنحة . باثنين يغطى وجهه وباثنين يغطى رجليه وباثنين يطير . وهذا نادى ذاك وقال قدوس قدوس قدوس ربُّ الجنود مجده ملء كل الأرض . فاهتزت أساسات العتب من صوت الصارخ وامتلأ البيت دخاناً » (إش ٦ : ١ – ٤) .

فإن هذه التعبيرات ليست وصفاً علمياً للمناظر الإلهية ، ولا نستطيع أن نبنى عليها أسئلة مشابهة لتساؤلاتنا عن المحسوسات ، فنسأل مثلاً : كيف يكون الرب جالساً أو قائماً ؟ وما مقدار ارتفاع الكرسى العالى الذى كان يجلس عليه ؟ وهل لكل الملائكة ستة أجنحة ؟ وما هى أذيال الله التى كانت تملأ الهيكل ؟ الخ ..

لكننا نفهم من هذا النص أن النبى إشعياء استطاع بكيفية روحية خاصة ، سواء فى رؤيا أو فى تأمل روحىّ ، أن يشعر بحضور خاص لله فى الهيكل ، جعله يشعر بالهيبة والخشوع ، ويدرك أن أقدس المخلوقات لا تستطيع أن تكشف وجهها أو تعرّى أقدامها قدامه ، فكيف يكون حاله هو الإنسان الضعيف النجس إذا وقف

فى حضرة هذا الإله ؟!!

لا ننكر أن بعض الناس فى بدائية تفكيرهم تخيلوا الله فى صورة بشرية ، وذلك بسبب محدودية تفكيرهم ، على أننا لا ننسب هذا الاتجاه إلى جميع من تحدثوا عن الله بلغة توحى بأن الله مثل البشر أو قريب الشبه بالإنسان . فإذا قرأنا عن « يمين الرب » « وذراع الرب » ، « وعين الرب » فلا ينبغى أن نتصور فى خيالنا الأعضاء البشرية ، بل ان هذه التعبيرات تشير إلى قدرة الرب ، ومعونة الرب ، ومعرفة الرب ، وعناية الرب ... وحتى عند وصف الله بأنه « الآب » أو « الابن » أو « الروح » ، لا ينبغى أن نقارن هذه الكلمات بما تعنيه فى لغتنا البشرية من معانى الأبّوة أو البنوة أو الروحانية ... إنها تختلف عن ذلك تماماً ، وما هذه الألفاظ إلا وسيلة لتقريب معان أخرى إلى نفوسنا وعقولنا ، لا نستطيع أن نعبّر عنها بالألفاظ .

والصعوبة الثانية : هى تنوع اختبارات البشر للذات الإلهية . وبادىء ذى بدء يجب أن ندرك أن « معرفة الله » أو « التعرف إلى الله » أكثر تعقيداً من معرفة شيء ما من الأشياء أو شخص من الأشخاص . فعندما يتعرف طرف ما على آخر ، تتوقف هذه المعرفة على حقيقة كل طرف من الطرفين . فتعرُّف الطفل مثلاً على قطعة من الحلوى ، يختلف عن تعرّف العالم الكيميائى على

قطعة الحلوى نفسها . فالأول يهتم بشكلها ومذاقها ؛ بينما يضيف الآخر إلى ذلك تركيبها الكيميائى وخواصها وقيمتها الغذائية الخ .

كذلك فإن تعرّفنا على الأشخاص أكثر تعقيداً من تعرفنا على الأشياء أو النباتات أو الحيوانات ، لأن معرفتنا الحقيقية للأشخاص تقتضى وجود علاقة ما معهم ، وتعاملات خاصة ، وكلما زادت هذه العلاقة قرباً ، وتنوعت اختباراتنا لهم ، وعرفنا ردود أفعالهم وتصرفاتهم فى مختلف المواقف ، زادت معرفتنا لهم .

كما أن تعرّفنا على بعض الأشخاص الذين نشعر أنهم أسمى منا ، سواء فى المركز أو المقام أو العلم أو السلطان ، يختلف عن أسلوب معرفتنا لأصدقائنا وأقاربنا . فإن شعورنا بأن بعض الناس في مستوى أعلى منا ، يجعلنا ننتظر بلهفة أن يقتربوا منا ويسمحوا لنا بالاقتراب منهم ، حتى نتعرف عليهم أكثر . فاذا كانت هذه هى درجات المعرفة فى علاقتنا بالأشياء والأشخاص ، فكم يكون الحال إذا أردنا أن نتعرف على شخصية الله تعالى ، الإله المتسامى فوق البشر ، والمنزّه عن كل وصف محسوس ومحدود ؟!!

لذلك لا عجب أن قال الله فى سفر إرميا « هكذا قال الرب : لا يفتخرنَّ الحكيم بحكمته ، ولا يفتخر الجبار بجبروته ، ولا يفتخر الغنىّ بغناه ، بل بهذا يفتخرنَّ المفتخر بأنه يفهم ويعرفنى أنى أنا الرب الصانع رحمة وقضاءً وعدلاً فى الأرض ،

لأني بهذا أُسرُّ » (إر ٩ : ٢٣ ، ٢٤)

ذلك لأن التعرف على الله معناه فى الحقيقة اختبار الله شخصياً ، وهذا هو امتياز المؤمنين الذين تتفتح حياتهم وقلوبهم لكى تختبر الله ، الذى فى نعمته يدنو من الإنسان ، ويعلن نفسه له . ونحن نستطيع أن نقرأ اختبارات الناس الآخرين لله ، ونجدها كثيرة التنوع ، فلا يصيبنا هذا بالحيرة أو الشكوك ، بل بالحرى نسعد لأن غنى الله الذى لا يستقصى ، يجعل من الطبيعى أن تتنوع هذه الاختبارات .

وأصدق هذه الاختبارات هى الواردة فى الكتاب المقدس ، لأننا نؤمن أن الكتاب كتب بوحى من الله ، لذلك فإن ما ورد فيه يخلو من الأخطاء الإنسانية التى يمكن للإنسان أن يقع فيها نتيجة لغروره أو خداعه لنفسه . هذا فضلاً عن الأدلة الكثيرة لصدق الوحى المقدس وتأييده من الله بالآيات والمعجزات .

إننا نجد فى الكتاب المقدس تاريخاً لمعاملات الله مع البشر ، تكشف لنا شيئاً عن شخصية الله ، ونجد أحداثاً يتجلى فيها الله أو يظهر بصورة أو بأخرى للبشر ، نعرف منها أيضاً شيئاً عن شخصية الله ، ونجد أوصافاً وأسماء متعددة لله تعالى تزيد معرفتنا بطبيعته وصفاته ؛ لكن كل تلك المعرفة النظرية تختلف تماماً عن اختبارنا الشخصىّ لله . إنها لازمة وضرورية لتنير أذهاننا ، لكننا يجب أن

نتوقع أن نجتاز نحن أنفسنا اختباراً خاصاً لله ، نشعر فيه أنه يكلمنا عن خطايانا وضعفنا فنتواضع قدامه ، ونفتح قلوبنا لقيادته وارشاده لنا ، فنصير أبناء له ، وشركاء معه فى رسالته للعالم ... هنا تتغير الحياة كلُّها ويصير الله بالنسبة لنا ، ليس مجرد قوة بعيدة عنا ، تسمو فوقنا ... ولا نظرية ندرسها ، لكنه يصير سيّداً شخصياً على حياتنا ، وأباً محباً عطوف يحنو علينا .

واختبارنا لله لا ينبع من فراغ أو خيال ، ولا من أوهام وأحلام صبيانية ، بل ينبع من محاولتنا الجادة أن نتعرف على الله من خلال اعلاناته عن ذاته ووصاياه فى الكتاب المقدس ، واستعدادنا الحقيقى وليس مجرد العاطفى – لطاعته والانشغال الحقيقى بارضائه .

إن دراستنا للكتاب المقدس هى أصدق وسيلة بها نتعرف على اختبارات الناس لله . ومع أننا نقرأ هذه الاختبارات بلغة بشرية قاصرة عن التعبير كما أوضحنا من قبل ، ومع أن هذه الاختبارات متنوعة ومختلفة بعضها عن بعض ، إلا أننا من خلال هذه الدراسة نستطيع أن نتعرف على الله فى التاريخ المقدس ، فيعدّنا الله للخطوة التالية وهى تعرّفنا إليه فى اختبارنا الشخصىّ .

لذلك كان من الضرورى أن ندرس صوراً من تجليات الله للبشر فى العهد القديم ، وفكرة عن أسماء أو صفات الله فى العهد

القديم ، لتكون تمهيداً لدراستنا عن اعلانه الأسمى فى العهد الجديد ، فى شخص يسوع المسيح .

- ١ -

وجـــه الله

ويرد هذا التعبير باللغة العبرية [فانيم أو بانيم] وقد استخدم التعبير (رؤية وجه الله) ليشير إلى الاحساس بحضور الله بكيفية خاصة فى موقف معين .

عندما كان يعقوب راجعاً إلى أرضه ومعه زوجتاه وأولاده وثروته الهائلة من الغنم والبقر والعبيد ، توقع أن أخاه عيسو سينتقم منه لأجل خداعه له ، وحاول بوسائله البشرية وأساليبه الاسترضائية ، أن يستعطف أخاه عيسو ، فجهز الهدايا قطيعاً قطيعاً لكى تسبقه ، قائلاً : « أستعطف وجهه بالهدية السائرة أمامى وبعد ذلك أنظر وجهه . عسى أن يرفع وجهى » (تلك ٣٢ : ٢٠)

وفي وسط خوفه وقلقه ووحدته اجتاز يعقوب اختباراً روحياً ونفسياً وعنيفاً ، فقد كان يصارع إنساناً حتى طلوع الفجر . نحن لا نستطيع أن نجزم بشكل هذا الصراع .. هل كان فى رؤيا ، أو جاءه ملاك من الله فى صورة جسدية ، إنما المهم هو أن يعقوب شعر بعظمة الشخصية التى كان يصارعها ويطلب منها البركة بالحاح ، وتعلم يعقوب درساً فى هذا الاختبار ، وهو أنه

لا يستطيع أن ينتزع البركة من الله ، بل عليه أن يتقبلها بتواضع كنعمة من الله . لقد انكسر يعقوب ، وتواضع فى هذا الاختبار وهو يصارع حتى انخلع حُقُّ فخذه ، وكان انكساره أمام الله هو الانتصار الحقيقى لأن الله باركه – والظاهر أن يعقوب كان يطلب فى بركة الله السلامة من يد أخيه عيسو كما صلى من قبل قائلاً : « نجنّى من يد أخى ، من يد عيسو . لأنى خائف منه أن يأتى ويضربنى الأم مع البنين » . لذلك تمسك فى صراعه قائلاً : « لا أطلقك إن لم تباركنى » . وكانت النتيجة أنه أعطاه اسماً جديداً وقال له : « لا يدعى اسمك فى ما بعد يعقوب بل إسرائيل . لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت » (تك ٣٢ : ٢٨) بعد هذا الاختبار دعا يعقوب اسم ذلك المكان فنيئيل أو فنوئيل ومعناها بالعبرية « وجه الله » قائلاً : « لأنى نظرت الله وجهاً لوجه ونُجيَّت نفسى » .

وكل اختبار يشعر فيه الإنسان بحضور الله بصورة خاصة ، يمكن أن يُعبَّر عنه بأنه رؤية وجه الله – فعندما طلب موسى من الرب قائلاً : « علمنى طريقك حتى أعرفك » قال الله له « وجهى يسير فأريحك » (خر ٣٣ : ١٤) .

والعكس أيضاً صحيح ، فإن التعبير بأن الله يحجب وجهه عن الإنسان معناه إبعاد الإنسان عن الشعور بالحضور الإلهى ، وبذلك

يكون بلا حماية ، وبلا أمان ، وبلا بركة .

لذلك كانت صفة البركة الكهنوتية تتضمن : « يضيء الرب بوجهه عليك ويرحمك . يرفع الرب وجهه عليك ويمنحك سلاماً » (عدد ٦ : ٢٥) .

وعندما شعر قايين بذنبه بعد أن قتل أخاه هابيل قال للرب : « إنك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض ، ومن وجهك أختفى ، وأكون تائهاً وهارباً فى الأرض » (تك ٤ : ١٤) فكيف يختفى إنسان ما من وجه الرب ، مع أن الرب حاضر فى كل مكان ولا يخفى عنه شيء ؟ المعنى هنا هو أن الإنسان يشعر أنه بعيد عن الحضور الإلهى وبعيد عن الرعاية الإلهية .

لذلك قال الله عمَّن يتركه وينكث عهوده : « فيشتعل غضبى عليه ... وأتركه ، وأحجب وجهى عنه فيكون مأكلة وتصيبه شرور كثيرة وشدائد حتى يقول فى ذلك اليوم أما لأن إلهى ليس فى وسطى أصابتنى هذه الشرور ... » (تث ٣١ : ١٧) .

إذاً ، فمع أن وجه الله بمعنى بهائه الكامل ومجده المطلق لا يمكن أن يُرى ، لأن الإنسان لا يستطيع ، وهو فى هذا العالم المحدود ، أن يرى وجه الله ويعيش ، لكنَّ اختبار الإنسان لعناية الله ومحبته وبركته يُعَّد نوعاً من الاتصال بين الله والإنسان . فعندما

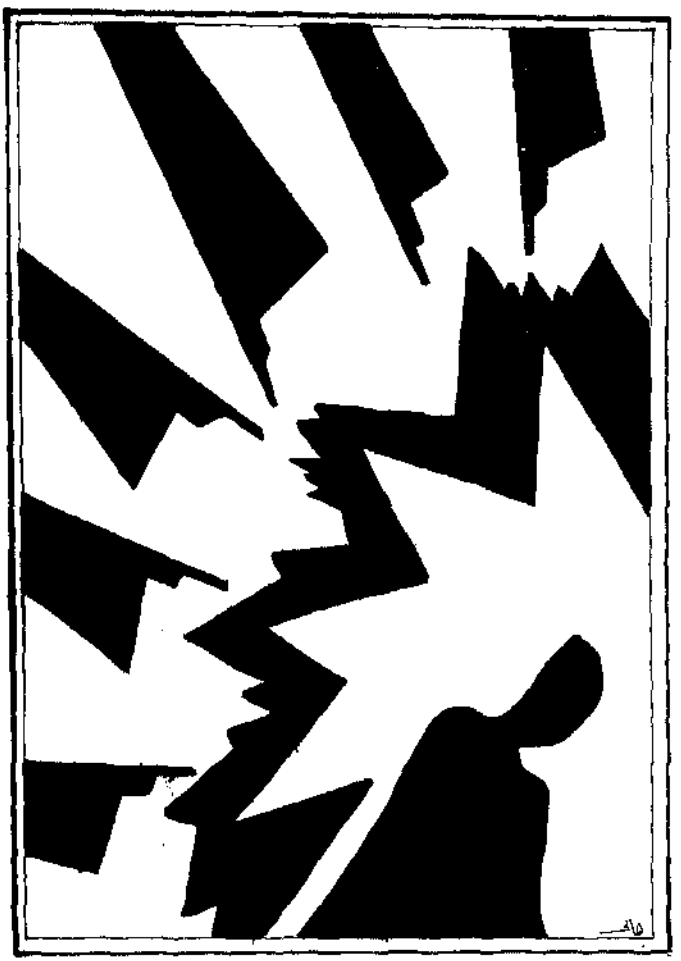

قال موسى لله : « أرنى مجدك » – رد عليه الله بالقول : « أُجيز كل جودتى قدامك . وأنادى باسم الرب قدامك . وأتراءف على من أتراءف ، وأرحم من أرحم » . بمعنى أن الله يُظهر وجهه فى أعمال عنايته وجودته وبالرسالة التى ينادى بها بمراحمه وبرأفته ... لكن « لا تقدر أن ترى وجهى » (خر ٣٣) أى أن الإنسان لا يدرك الله كما يدرك وجود المحسوسات ، ولا حتى المعنويات .

- ٢ -
صوت الله أو كلمة الله

[بالعبرية (قول) أو (دبار) ولا نقصد هنا الكلمة المشار إليها باليونانية (لوجوس)] .

هذه أيضاً صورة لاتصال الله بالإنسان . فهناك بعض المواقف التى يشعر فيها الإنسان بأن الله يوجه إليه رسالة معنية ، وعندما يكون صادقاً مع نفسه ، متفتحاً لعمل روح الله ، فانه يختبر سماع صوت الله . ومع أن هذا ممكن مع كل إنسان ، إلا أن هناك احتمالات لخداع النفس عند بعض الناس ، وهنا تظهر أهمية الإخلاص والتسليم الكامل للرب ، والاستعداد الحقيقى الواعى لطاعته . وبالنسبة للأنبياء كان الله يؤيد أقواله لهم بالآيات ، وفى نفس الوقت يعصمهم من الخطأ فى ادراك أو تفسير كلام الرب لهم . لكن من المعروف أنه كان هناك أنبياء كذبة ، يدَّعون أن الله كلمهم وهم فى الحقيقة يصغون لأهواء قلوبهم ، أو يسيئون تفسير رسالة الرب .

وفى العهد القديم نرى تنوّع صور كلام الرب وصوته للبشر .

فقد نراها فى مظاهر معينة فى الطبيعة كقول المرنم « أرعد الرب من السمٰوات ، والعلىّ أعطى صوته بَرَداً وجمر نار . أرسل سهامه فشتّتهم وبروقاً كثيرة فأزعجهم » (مز ١٨ : ١٣ ، ١٤) . ومع أن الظواهر الطبيعية تجرى على جميع الناس ، لكن الله يوجه بها رسالة إلى قلوب بعض الناس ، فيكون بذلك قد اتصلّ بهم ، لهدف وقصد إلهيين .

ويقول كاتب الرسالة إلى العبرانيين إن الله « كلم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة » (عب ١ : ١) ومعنى ذلك أن الله لم يخاطب الناس مباشرة ، بل خاطبهم بالأنبياء ، وكان هذا الحديث بأنواع وطرق كثيرة .

ومن بين هذه الطرق صوته فى الطبيعة بكيفية تهيىء قلوبهم وعقولهم لتتلقى الوحى الإلهى ، أو الرسالة التى كان يريد أن يكلفهم بها .

نأخذ مثلاً لذلك إيليا النبى . نقرأ عنه كيف شعر بأنه وحيد ومهدد فى وسط شعب قد تركوا عهود الرب وقتلوا أنبياءه . وأراد الرب أن يقدم إليه رسالة معينة ، فناداه أن يقف على الجبل أمام الرب . وطبيعى أن الرب ماليء السموات والأرض ، والإنسان دائماً تحت عينه وملاحظته ، لكن فى ذلك المكان المحدد شعر إيليا أن الله يعدّه ليتلقى رسالة خاصة . ويصف كاتب سفر الملوك

الأول كيف تلقى إيليا رسالة الرب ، فيقول :

« وإذا بالرب عابر ، وريح عظيمة وشديدة قد شقّت الجبال وكسّرت الصخور أمام الرب ، ولم يكن الرب فى الريح » أى أن إيليا شعر فى تلك الريح بعظمة الرب وجلاله لكنه لم يتلق رسالة من الرب بعد هبوب الريح . « وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب فى الزلزلة ، وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب فى النار » . إلى هنا وإيليا ينتظر ، والله يُعدّه ليتلقى الرسالة . وكان قد دخل إلى مغارة ليختبىء من هذه الظواهر الطبيعية العاتية .. « وبعد النار صوت منخفض خفيف » ... وهنا هدأت نفس إيليا وشعر باستعداده لتلقى الرسالة . يقول كاتب سفر الملوك : « فلما سمع إيليا لفّ وجهه بردائه (دليل الخشوع والاحترام والرهبة) وخرج ووقف فى باب المغارة » .

وهنا استطاع أن يسمع صوت الله الذى كلفه بمهمة خاصة هى أن يمسح ياهو ملكا ، وأليشع نبياً عوضاً عنه . (١ مل ١٩ : ٩ – ١٦) وكثيرون يتساءلون كيف كلّمه الله ، وهل سمع صوتاً فى أذنيه فعلاً ، أم كان فى غيبوبة روحية وتلقى الرسالة كأنه فى حلم ؟!! هذه الأسئلة نفسها دليل على أننا ما زلنا ننظر إلى الله نظرة بشرية أو شبه بشرية ... لأنه أيًّا كانت الوسيلة التى سمع بها الرب ، فان المؤكد هو أن شيئاً جديداً دخل إلى حياته بعد هذا

الاختبار . ومن يقرأ هذه القصة فى سفر الملوك الأول ، يشعر بمعان أهم وأعمق من التساؤلات الساذجة عن كيفية سماعه للرب ...

كان إيليا يائساً وحزيناً وثائراً ويطلب لنفسه الموت ؛ وفى نفس الوقت كان يحس أنه هو وحده الغيور على عمل الرب ... كانت نفسه مليئة بالمتناقضات ، فكيف يطلب لنفسه الموت وفى نفس الوقت يشكو أنه مهدد من أعداء الرب بالموت ؟!!

ولقد كانت الظواهر الطبيعية العنيفة التى أظهرها الرب له الله تعبيراً عما يجول فى نفسه من مشاعر عنيفة نارية متفجرة كالزلزال ... لكنَّ الله كلَّمه فى الهدوء وفى الجوّ الهادىء ، وبيَّن له أنه ليس وحده الغيور على عمل الرب ، فهناك سبعة آلاف شخص يسجدون لله ولا يعبدون الأصنام . ثم طلب منه أن يمسح بعض الملوك ليبين له أن الله يعمل فى التاريخ ويستخدم كل الظروف لتحقيق قصده فى تأديب الشعب ؛ وطلب منه أن يمسح أليشع نبياً عوضاً عنه وبذلك يتأكد أن رسالة الرب ستستمر به أو بدونه .

هذه صورة من تجليات الله للأنبياء فى العهد القديم ، ترينا صوت الله وكلام الله فى شكل يختلف عما نتصوره فى حياتنا البشرية .

وصورةٌ أخرى من تجليات الله هى اعطاؤه الشريعة لموسى فى جبل حوريب ، فى مناظر رهيبة وكان موسى ينوب عن الشعب فى تلقّى الوصايا . ويروى لنا سفر التثنية كيف جمع موسى الشعب وقال لهم هذه الأقوال :

« الرب إلهنا قطع معنا عهداً فى حوريب . ليس مع آبائنا قطع هذا العهد بل معنا نحن الذين هنا اليوم جميعنا أحياء . وجهاً لوجه تكلم الرب معنا فى الجبل من وسط النار . أنا كنت واقفاً بين الرب وبينكم فى ذلك الوقت لكى اخبركم بكلام الرب لأنكم خِفْتُم من أجل النار ولم تصعدوا إلى الجبل ... هذه الكلمات كلم الرب بها كلَّ جماعتكم من وسط النار والسحاب والضباب وصوت عظيم لم يَزِدْ ... فلما سمعتم الصوت من وسط الظلام والجبل يشتعل بالنار تقدمتم إلىَّ ... وقلتم هو ذا الرب إلهنا قد أرانا مجده وعظمته وسمعنا صوته من وسط النار ... » (تث ٥) .

لقد كان أسلوب إعطاء الشريعة للشعب يتناسب مع ما أراد الله أن يوضحه لشعب إسرائيل عن الناموس من رهبة وغضب وعقاب لمن يخالف هذا الناموس ؛ فإن الله هيأ نفوس الناس لفهم حقيقة الناموس بالجوّ النفسى الذى أوجدهم فيه عند اعطاء الناموس . ويقول كاتب الرسالة إلى العبرانيين فى مجال المقارنة بين العهد القديم والجديد إنه فى عهد الناموس ، أتى الناس إلى : « جبل

ملموس مضطرم بالنار ، وإلى ضباب وظلام وزوبعة وهتاف بوق وصوت كلمات استعفى الذين سمعوه من أن تُزاد لهم كلمة ، لأنهم لم يحتملوا ما أمر به ، وإن مسَّت الجبل بهيمة تُرجم أو ترمى بسهم . وكان المنظر هكذا مخيفاً حتى قال موسى أنا مرتعب ومرتعد ... » (عب ١٢ : ١٨ – ٢١) .

إذاً نحن هنا أيضاً نتخطى مجرد السؤال كيف تكلم الرب إلى موسى ، لنرى أن الموقف كله الذى أوجد الله الشعب فيه ، وموسى معهم عند جبل الشريعة ، كان فى جملته تهيئة لهم لفهم مضمون الشريعة الأدبية التى قدمها موسى إليهم ، وتقبلها باعتبار أنها من الله .

- ٣ -

مجـــد الله

وهذا تعبير آخر يستخدمه الكتاب المقدس ليصف اختبار الناس لله . وأحياناً يشير هذا التعبير إلى ظاهرة حسيّة تعبّر عن جلال الله وهيبته ، وأحياناً أخرى يشير إلى عظمة أعمال عنايته وآياته فى أحداث العالم المختلفة .

وقد أشير إلى مجد الله فى سفر الخروج بالقول : « وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بنى إسرائيل » (خر ٢٤ : ١٧) ، وكان ذلك عند صعود موسى إلى جبل سيناء لكى يتلقى الشريعة ، إذ قيل إن مجد الرب حلّ على جبل سيناء وغطّاه بالسحاب .

وعندما أكمل موسى بناء خيمة الاجتماع وقدّمت فيها الذبائح حسب أمر الرب ، إذا بسحابة غطت خيمة الاجتماع وصفت هكذا :

« غطت السحابة خيمة الاجتماع وملأ بهاء الرب المسكن فلم يقدر موسى أن يدخل خيمة الاجتماع لأن السحابة حلّت عليها وبهاء الرب ملأ المسكن » (خر ٤٠ : ٣٤ ، ٣٥) .

وكان الشعب يرتحل عندما ترتفع السحابة عن الخيمة ، وإن لم ترتفع لا يرتحلون إلى يوم ارتفاعها . « لأن سحابة الرب كانت على المسكن نهاراً . وكانت فيها نار ليلاً أمام عيون كل بيت إسرائيل فى جميع رحلاتهم » (خر ٤٠ : ٣٧ ، ٣٨) .

وقد كانت هذه الظواهر الطبيعية وسيلة محسوسة لتقرّب فكرة مجد الرب إلى أذهان الشعب الذى كان ما يزال بدائياً فى تفكيره ... فلم يكن الله فى السحابة أو فى عمود النار ، ولم يكن ممكناً أن مجد الرب ذاته يتبلور فى هذه الظواهر ، لكنها كانت تعبيرات باهتة عن حقيقة لا يمكن التعبير عنها .

ويظهر ذلك جلياً فى الرؤى التى كان الأنبياء يرون فيها بعض المناظر ويصفونها بكلماتهم ، مثل رؤى حزقيال النبى ، ورؤيا يوحنا اللاهوتى . يقول حزقيال النبى : « وعلى شبه العرش شبهٌ كمنظر إنسان عليه من فوق . ورأيت مثل منظر النحاس اللامع كمنظر نار داخلة من حوله من منظر حقويه إلى فوق ، ومن منظر حقويه إلى تحت ، رأيت مثل منظر نار ولها لمعان من حولها كمنظر القوس التى فى السحاب يوم مطر ، هكذا منظر اللمعان من حوله . هذا منظر شبه مجد الرب . ولما رأيته خررت على وجهى وسمعت صوت متكلم » (حز ١ : ٢٦ – ٢٨) .

ويصف الرائى يوحنا منظراً مشابهاً إذ يقول : « وإذا عرش

موضوع فى السماء وعلى العرش جالس ، وكان الجالس فى المنظر شبه حجر اليَشب والعقيق وقوس قُزَح حول العرش فى المنظر شبه الزمرد » (رؤ ٤ : ٢ ، ٣) .

هذه الرؤى توضح لنا فى لغة بشرية المعنى الذى تتضمنه فكرة الرائى عن الله . فهو ملك ، لذلك يجلس على عرش ؛ وهو نار ، ولمعان ، بمعنى أنه لا يمكن النظر إليه . وقد فسّر البعض الألوان الواردة فى الرؤيا بأن اليَشْب وهو حجر ينفذ منه النور اللامع يشير إلى لمعان طهارة الله ؛ والعقيق الأحمر يشير إلى عدله وقوة غضبه ؛ وأن وجود قوس قُزَح فى شكل زمردة خضراء يشير إلى رحمة الله (لأن قوس قزح فى السحاب هو علامة عهد رحمة بعد الطوفان) ، لذلك فلا يمكن النظر إلى غضب الله إلا من خلال رحمته . وقد كان تعبير حزقيال النبى دقيقاً إذ قال إن « هذا منظر شبه مجد الرب » .

على أنه كلما تقدم الفكر بالإنسان استطاع أن يرى مجد الله فى عمله فى التاريخ ، وعجائبه التى صنعها مع الإنسان ، وهذا هو معنى القول : « مجده ملء كل الأرض » (إش ٦ : ٣) .

فالإنسان المتعبد لله ، وإن كان يرى مجد الله بعين الإيمان فى ساعة الخشوع والصلاة حين يقف فى رهبة أمامه كما قيل « أعبدوا الرب بخوف » ، يستطيع أن يرى مجد الله فى أعماله ، ولذلك

يقول داود في وسط آلامه في البرية : « يا الله إلهي أنت . إليك أبكر . عطشت إليك نفسي ، يشتاق إليك جسدي في أرض ناشفة ويابسة بلا ماء . **لكي أبصر قوتك ومجدك كما قد رأيتك في قدسك** » (مز ٦٣ : ١ ، ٢) وكما يقول المرنم أيضاً « ذابت الجبال مثل الشمع قدام الرب قدام سيد الأرض كلها . أخبرت السموات بعدله ، ورأى جميع الشعوب مجده » (مز ٩٧ : ٥ ، ٦) .

وبالاجمال نستطيع أن نقول إن الإنسان وهو يؤمن بسلطان الله في خلائقه ، وبيد الرب المتداخلة في كل أحداث التاريخ ، يفسّر الأحداث تفسيراً يختلف عن تفسير عديم الإيمان ، وبذلك يستطيع أن يرى مجد الله . ويمكن لنا أن نتبين عمق العبارة التي صدرت عن السيد المسيح عند قبر لعازر عندما قال لمرثا « إن آمنتِ ترين مجد الله » (يو ١١ : ٤٠) .

- ٤ -

مـــلاك الله

إن التعبير « ملاك الله » أو « ملاك الرب » في الفكر العبراني يسبق في وجوده العقيدة التي تكونت وتطورت عند اليهود في فترة ما بين العهدين ؛ فانه من المعلوم لجميع الدارسين أن العقيدة المفصّلة عن الملائكة Angeleology عند اليهود والتي كانوا يعتنقونها في زمن حدوث أحداث العهد الجديد ، ترجع أساساً إلى فترة ما بين العهدين ...

لكن في التفكير العبرى المبكر نرى أن اللفظ « ملاك الرب » استخدم للتعبير عن اعلان الله عن نفسه في صورة بشرية . والكلمة العبرية « ملاك » معناه رسول ، فالأصل في التعبير هو حمل رسالة من الله .

وقد تنوع استخدام هذا التعبير ، فأحياناً نجد الناس يتلقون ويستقبلون هذا الرسول أو هذا الملاك في شكل إنسان يحمل إليهم رسالة تخترق نفوسهم ويرون فيها تدخل الله في حياتهم ، فيعتبرون أنهم رأوا الرب في هذا الرسول أو الملاك أو من خلاله . فنقرأ في تكوين ١٦ أن ملاك الرب وجد هاجر جارية إبراهيم على عين الماء

فى البرية وكلمها وبشّرها أنها ستلد إسماعيل ... ونلاحظ بعد ذلك القول « فدعت اسم الرب الذى تكلم معها أنتَ إيل رئى » (تك ١٦ : ١٣) و (إيل) اسم من أسماء الله .

وتكرر شيءٌ شبيه بهذا فى تكوين ٢٢ عندما نادى ملاك الرب إبراهيم ثم قال « بذاتى أقسمت يقول الرب » .

وفى خروج ٣ ظهر ملاك الرب لموسى بلهيب نار ... وعندما اقترب موسى من العليقة يروى كاتب سفر الخروج الرواية بالقول :

« فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله »(خر ٣ : ٢ ، ٤) .

وفى بعض المواضع الأخرى فى الكتاب نرى أكثر من رسول أو ملاك ، فقد جاء إلى إبراهيم ثلاثة رجال ، عرفنا فيما بعد أنهم ملائكة ... وكان الرب يتكلم باعتباره واحداً منهم (تكوين ١٨) ولكننا نرى ملاكين فقط يذهبان إلى لوط فى سدوم (تكوين ١٩) ونفهم من التعبير : « وجاء الملاكان إلى سدوم » أنهما رجلان من الثلاثة الذين جاءوا إلى إبراهيم ، الأمر الذى دعا بعض الشراح لأن يفسّر ذلك بأن الثالث كان هو الرب نفسه فى تجسّد وقتى ، أما الاثنان الآخران فهما ملاكان فى صورة بشرية أيضاً لأن الكتاب يشير إليهما بالقول « الرجلان » عدة مرات ... ولا يستبعد أن يكونا رجلين فعلاً يحملان رسالة من الله لأنه ليس للملائكة جنس

معين ، ذكور أو إناث .

ويعتقد كثيرون من المفسرين أن التعبير « ملاك الرب » في العهد القديم يشير بنوع خاص إلى الأقنوم الثاني من اللاهوت ؛ الرب يسوع المسيح ، في صورة بشرية مؤقتة قبل التجسد من مريم العذراء ، فهو مثلاً الذى ظهر لمنوح وزوجته أبوى شمشون (قضاة ١٣) وظهر فى تجسد بشرى حتى إنهما ظنّاه نبياً ودعياه « رجل الله » . وقد وعدهما بمواعيد وعلمهما تعاليم ولما سأله منوح عن اسمه قال له : « لماذا تسأل عن اسمى وهو عجيب » ورفض أن يأكل لكنه طلب منهما تقديم ذبيحة للرب ، وعند صعود اللهيب عن المذبح نحو السماء صعد الملاك فى لهيب المذبح ، الأمر الذى أدهش منوح وزوجته وقال منوح لامرأته « نموت موتاً لأننا قد رأينا الله » (قض ١٣ : ٢٢) .

إذاً ، فالله – الذى لا يمكن أن يُرى بالعين – يستخدم رسولاً هو « ملاك الرب » يظهر في صورة بشرية حسب ارادة الله ، ليعلن ارادته ويوصل رسالته إلى الناس . وسواء كان هذا الرسول إنساناً مثل يوحنا المعمدان الذى قيل عنه بالنبوة « هانذا أرسل ملاكى فيهيء الطريق أمامى » (ملاخى ٣ : ١ – انظر أيضاً مرقس ١ : ٢) .

أم كان هذا الرسول الأقنوم الثانى من اللاهوت ، أو أحد جنود

الرب السماويين بصورة أو بأخرى ، فإن الناس كانوا يرون الله ويختبرونه فى الموقف الذى يوجدهم ويكلمهم فيه ، ويعتبرون أنهم رأوا الرب ... لأنه كيف يرونه بغير هذه التجليات ، وهو تعالى روح غير محدود لا يُدرك ؟

— ٥ —

روح الله

كلمة « روح » بالعبرية معناها « ريح » أو « نَفَسْ » أو « نسمة » ، لذلك كان من الطبيعي أن يعتقد الناس أن تردد أنفاس الإنسان فى صدره دليلٌ على أن روحه ما زالت فيه ، وعلى هذا الأساس فهموا أن الروح هى مبدأ الحياة الإنسانية ، وأن الله نفخ فى أنف الإنسان نسمة حياة . فصار آدم نفساً حية .

هذا عن الإنسان الذى يتكون من جسد وروح ... لكن ماذا نقصد عندما نتكلم عن « روح الله » بينما الله ذاته روح وليس جسداً ؟

الواقع أن كَتَبة الأسفار المقدسة كانوا مرتبطين بقيود اللغة عندما عبّروا عن عقيدتهم فى شخصية الله ، لذلك استعاروا التعبير « روح » وهم يتكلمون عن الله لكى يصفوا جوانب من القوى التى تصوروها في الله بنفس الصورة التى يفكرون بها فى الإنسان . وعلى هذا الأساس لا نجد فى آيات كثيرة تمييزاً بين الله ، وروح الله . ففى مزمور ١٣٩ يقول المرنم :

« أين أذهب من روحك
ومن وجهك أين أهرب » .

ويتحدث إشعياء عن روح قدس الله ليشير إلى الله ذاته فى قوله « ولكنهم تمردوا وأحزنوا روح قدسه فتحول لهم عدواً » (إش ٦٣ : ١٠) .

لكن فى بعض المواضع نرى أن روح الله يشير إلى عمل من أعمال الله ، فنراه للدينونة مثلاً فى قول الله « لا يدين روحى فى الإنسان إلى الأبد » (تك ٦ : ٣) ، وللارشاد والتعزية كما فى القول : « لا تطرحنى من قدام وجهك ، وروحك القدوس لا تنزعه منى » (مز ٥١ : ١١) ، وللخلق وحفظ الحياة كما فى القول « ترسل روحك فتخلق وتجدد وجه الأرض » (مز ١٠٤ : ٣٠) .

والواقع اننا نرى فى استخدامات التعبير « روح الله » حتى فى العهد القديم ، ما يوحى لنا بفكرة التثليث التى هى أعظم تعبير عن غنى شخصية الله واتساعها وأنه واحد فى ثلاثة أقانيم ، كما سندرس فيما بعد . فاننا من خلال الكتاب المقدس نرى أن روح الله شخصية يمكن أن تحزن وتغضب وغير ذلك من مقوّمات الشخصية .

ونستطيع أن نقول إن الشعب العبرانى فى العهد القديم استطاع أن يختبر الله من خلال أعمال روح الله . ونلخص هذا فى النقاط التالية :

أ – نحن نراهم يرون روح الله فى الطبيعة الظاهرة فهو يخلق وجه الأرض (مز ١٠٤ : ٣٠) بل هو الذى نظمَّ ونسَّق الخليقة « بنفخته السموات مُسْفِرة » (أى ٢٦ : ١٣) وهو مصدر الخير والإثمار « إلى أن يُسكَبَ علينا روح من العلاء فتصير البرّية بستاناً » (إش ٣٢ : ١٥) .

ب – وروح الله هو مصدر حياة الإنسان وعقله « وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض . ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حيّة » (تك ٢ : ٧) ولذلك لقّب الله بأنه « إله أرواح جميع البشر » (عدد ١٦ : ٢٢) والله يعطى بروحه حكمة للإنسان (خر ٢٨ : ٣ ؛ ٣١ : ٣) فقد قيل إن الله ملأ الحكماء من « روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة » (خر ٣٥ : ٣١) .

جـ – وروح الله هو الذى يعطى القوة الخاصة للبشر لكى يعملوا أشياء عظيمة . فقد أعطى الله لبعض البشر قوة للحرب والانتصار مثل عثنيئيل قاضى إسرائيل الذى قيل عنه : « فكان عليه روح الرب وقضى لإسرائيل وخرج للحرب فدفع الرب

ليده ... ملك أرام » (قض ٣ : ١٠) وقيل عن جدعون : « ولبس روح الرب جدعون فضرب بالبوق » (قض ٦ : ٣٤) وهكذا قيل في شمشون وغيره ... لذلك فعندما فارق روح الرب شمشون انهزم ؛ وعندما فارق شاول الملك دخله رؤح ردىء (١ صم ١٦ : ١٤) .

وهو الذى يعطى للناس الحكمة والمهارة الفنية ليكونوا صناعاً مَهَرة كمن صنعوا ثياب هرون الكهنوتية ، ومن قاموا ببناء الهيكل إلى غير ذلك (خر ٣١ : ٢ – ٤ ؛ ٣٥ : ٣١ ؛ امل ٧ : ١٤ ؛ ٢ أى ٢ : ١٤) .

فكأنما ما نطلق عليه الآن المواهب الطبيعية والقدرات الخاصة ، اعتبرها شعب الله من عطايا روح الله . وفوق الكل فإن الله كان يعطى روحه للأنبياء ليتنبأوا ويعلنوا ارادة الله للناس . وقد كان يطلق على النبى لفظ (رائى) أى من يرى رؤى الله ؛ ثم صار فيما بعد يسمى (نبياً) أى ينبىء بشىء من عند الله . وكان الأنبياء ينسبون رسالتهم إلى الله ، ويبدأونها بالقول : « هكذا قال الرب » معتبرين أن روح الله أعطاهم هذه الرسالة .

د – ولم يكن روح الله فى العهد القديم قاصراً على اعطاء المواهب الطبيعية والقدرات الخاصة للخدمة أو لاعلان

رسالة الله فحسب ؛ بل كان أيضاً مصدراً للفضائل الأخلاقية فى الإنسان ، كما يطلب المرنم قائلاً : « ردَّ لى بهجة خلاصك ، وبروح منتدبة اعضدنى » (مز ٥١ : ١٢) . وقيل عن عناية الله بالشعب « وأعطيتهم روحك الصالح لتعليمهم (نحميا ٩ : ٢٠) ويقول المرنم « روحك الصالح يهدينى فى أرض مستوية » (مز ١٤٣ : ١٠) .

وهكذا نرى صورةً أخرى من اختبار الناس لله فى عمل روحه فيهم .

فالله ، الذى ندرك بوعى فطرى وجوده ، ولا نستطيع بالعقل أن نستوعبه ، ولا باللغة البشرية القاصرة أن نصفه ، ولا بالحواس أن نراه أو نلمسه ... هذا الإله يقترب إلينا فى أرواحنا ، ويتجلى لنا فى معاملاته معنا ، فنحس بحضوره فى كل عبادة خاشعة . وفى كل اختبار يغيّرنا ويهزُّ كياننا . وفى رضاه علينا نرى أن وجهه أمامنا ؛ وفى تمزقنا ووحدتنا نشعر أننا بعدنا عنه فحجب وجهه عنا . وفى الطبيعة والأحداث الجارية وكلمات الكتاب المقدس يكلمنا ... وبينما نحن نختبره هكذا نرى مجده ، وفى عنايته نرى ملائكته تحرسنا ، وبروحه الساكن فينا يعلمنا ويرشدنا ويهدينا ... هذا لو وقفنا عند اعلان العهد القديم ، لكننا فى العهد الجديد نرى كيف أعلن الله ذاته ومجده وحبه فى يسوع المسيح بصورة كاملة

تفوق الوصف .

فقد نزل الله إلينا متجسداً ، لا لكى يزلزل الجبال كنداء النبى القديم :

« ليتك تشق السموات وتنزل
من حضرتك تزلزل الجبال
حين صنعت مخاوف لم ننتظرها
نزلت تزلزلت الجبال من حضرتك »
(إش ٦٤ : ١ ، ٣)

بل ليدوس الموت ويسحق الشيطان ويفدى شعبه ومنتظريه .

وهكذا تحققت كل التجليات فى « بهاء مجد الله ورسم جوهره » ، فنحن نرى الله فى وجه يسوع المسيح ، وهو الكلمة المتجسد ، وقد « رأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً » ، فهو ملاك حضرة الله وابنه الحبيب الذى يرسل لنا روحه ليسكن فينا ، فنستطيع أن نهتف مع ذلك النبى القديم عينه :

« منذ الأزل لم يسمعوا ولم يَصغوا
لم تر عين إلهاً غيرك يصنع لمن ينتظره »
(إش ٦٤ : ٤)

٣

تطـــوّر العقيــدة الإلهيــة
فـــى
العهـــد القـــديم

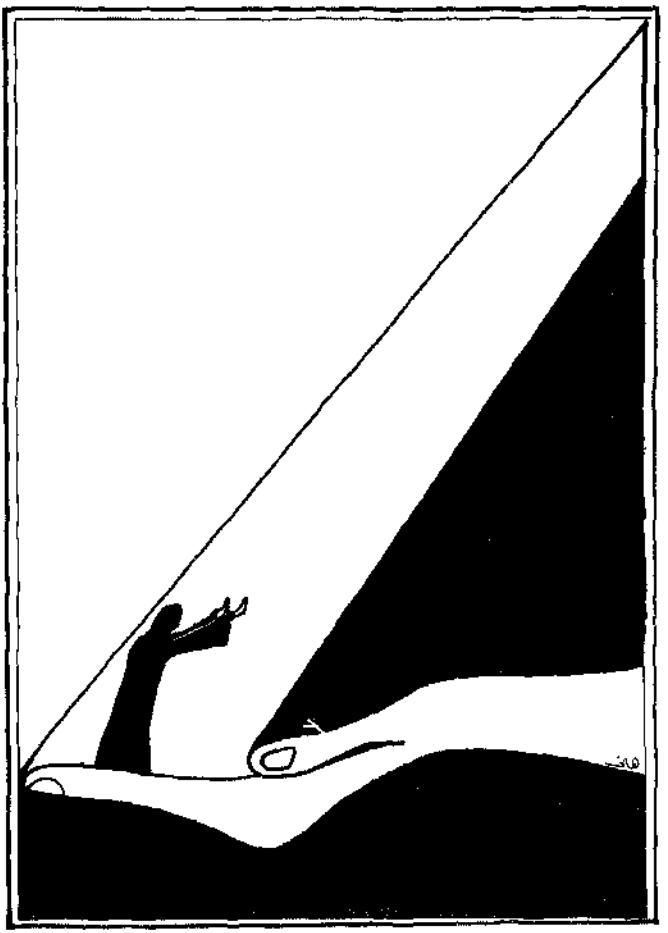

رأينا فيما سبق صوراً من تجليات الله واختبارات الناس له فى العهد القديم ، وقد ذكرنا أن هذه الصور المتنوعة تعطينا قبساً من الضياء عن هذا الإله غير المحدود وغير المُدرَك ، لكنها لا تستوعبه .

وإذ ننتقل الآن إلى دراسة تطور العقيدة الإلهية فى العهد القديم ، نريد أن نوضح أن مصدر هذه الدراسة هو العهد القديم نفسه ، وفى نفس الوقت فإن مثل هذه الدراسة تساعدنا على فهم العهد القديم .

وطبيعى يجب أن ندرك أن الاعلان الإلهى فى العهد القديم كان متدرجاً بقدر ما استطاع الناس فى بدائية تفكيرهم أن يدركوا . وهذا التدرج يعنى أمرين :

الأول هو أن الله جلّت قدرته يتعامل مع الإنسان بقدر ما يتسع عقله وخبرته أن تستوعب . والأمر الثانى هو أننا لو توقفنا عند

مرحلة معيّنة في العهد القديم ، أو عند العهد القديم فقط ، فان قصوراً واضحاً سيكون فى أذهاننا عن شخصية الله تعالى ، ولا يمكن أن يكتمل اعلان الله تعالى لذاته إلا فى يسوع المسيح الذى هو الاعلان الكامل الله . صحيح إن عقولنا حتى الآن لن تستطيع ادراك الله ادراكاً كاملاً ، إنما سنظل نتأمل ونغتذى على هذا الاعلان الكامل مكتشفين يوماً بعد آخر جوانب جديدة منه حسبما تقدر عقولنا أن تستوعب ، إلى أن نترك هذا العالم المحدود الذى نعيش فيه والذى نعرف فيه بعض المعرفة ، لتكتمل معرفتنا فى الأبدية عندما نعرف كما عُرِفنا (١ كو ١٣ : ١٢) .

والبعض يفزعون من فكرة تدرج اعلانات الله تعالى لذاته خشية أن يكون فيها مساس بذات الله تعالى ، إلا أن هذا التدرج لا ينال شيئاً من كمال الله تعالى ، ولكنه مرتبط بقدرة الإنسان على الفهم . ورغم قصور كل التشبيهات الإنسانية عن وصف الحقائق الإلهية إلا أنه لتقريب الفكرة نقول ، إن المعلم مهما كان متعمقاً فى علمه ومادته لكنه إذا أراد أن يعلّم طفلاً مبادىء القراءة والكتابة ، فانه يتدرج معه بالحروف البسيطة المفردة ، والكلمات السهلة ، ويستعين على ذلك بوسائل إيضاح قد تبدو ساذجة أحياناً ، حتى ينضج الطفل وينمو فى معرفته شيئاً فشيئاً . فالقصور هو من جانب التلميذ وليس من جانب المعلم .

وتطور العقيدة الإلهية فى العهد القديم موضوع متسع ، ويتطلب دراسة أدبية وتاريخية لكل تلك الفترة الطويلة ، لذلك لا يمكن أن نحيط به فى محاضرة أو مجموعة محاضرات ، لكننا هنا نوجز إيجازاً شديداً نرجو ألا يكون مُخلاً ، ونقسم مراحل تطور العقيدة الإلهية فى العهد القديم إلى ثلاث مراحل :

عصر ما قبل الأنبياء ، وعصر الأنبياء حتى السبى ، وعصر ما بعد السبى .

ويهمنا أن نشير هنا إلى أن هذا التقسيم لا يضع فواصل زمنية محددة تماماً ، فان بعض النظريات تطورت فى خلال الفترة الواحدة ، وقد نجد ملامح منها فى أكثر من فترة ، إنما وضعنا هذه المراحل لمجرد التيسير والتبسيط .

أولاً

العقيـــدة الإلهيـــة
فـــى
عصـــر ما قبل الأنبياء

مع أن كثيرين من الدارسين يعتبرون أن الديانة اليهودية بدأت كديانة منظمة باعلان الله شريعته لموسى النبى ويبدأون دراسة العقيدة الإلهية بعصر الخروج من أرض مصر ، إلا أنه قد يكون من المفيد أن نشير اشارة عابرة إلى العقيدة الإلهية قبل هذا العصر .

ففى القصة القديمة جداً التى يرويها سفر التكوين عن خلق الإنسان وحياته فى جنة عدن ، ومهما اختلفت الآراء بشأن هذه القصة وتفسيرها ، فإن الواضح أن الإنسان فى حالة البراءة الأولى كان يتمتع بالشركة مع الله بصورة وثيقة لا يمكن لنا الآن تصوّرها . فقد كانت معرفته بالله مباشرة ، لكن بعصيان الإنسان لوصية الله ودخول الخطية إلى قلبه ، طُرِد الإنسان من أمام وجه الله وفقد تلك المعرفة المباشرة بالله ، وهكذا ابتدأ يتلمس طريقه ليجد له إلهاً . وفى بحث الإنسان عن الله تردّت البشرية فى هاوية الأصنامية .

صحيح إن الله كان يكلّم الآباء ويعلن لهم ذاته بصورة أو بأخرى ، وغالباً فى ضمائرهم . وتجاوب البعض مع الله مثل هابيل وأخنوخ ونوح ، وكان يعبّرون عن هذا التجاوب ببناء مذابح وتقديم ذبائح لله . لكن إبراهيم يعتبر أول من عزل نفسه عن الأصنام بصورة عملية ، بإيمانه بالله الذى دعاه أن يترك أرضه وعشيرته ، فقبل المخاطرة فى سبيل الابتعاد عن الأصنام ، واعتبُر أباً للمؤمنين ، وصار هو ونسله من بعده فى ظل سياج خاص هو « شركة مقفلة أو مغلقة » لشعب خاص هدفه التعمق فى معرفة الله الواحد ؛ ثم – فى قصد الله – ليكون بركة لغيره .

وقد يتساءل البعض : كيف جاءت عبادة الأصنام ؟ ويمكن الاجابة عن هذا السؤال ، بأن الإنسان عندما كان يتلمس طريقه بطبيعته الفطرية لمعرفة الله – وهذا شعور فطرى عند الإنسان أن يتعبد لإله ما – أخذ الإنسان يحاول تفسير أسرار الطبيعة حوله ، وابتدأ يعبد قوى الطبيعة باعتبارها مصدر الحياة .

وكان الجنس « Sex » من الوسائل التى كانت تنتج الحياة ، لذلك لعب الجنس دوراً هاماً فى العبادة ، وظهر ذلك بوضوح فى ديانات البابليين إذ كانو يرسمون نقوشاً تبين العلاقات الجنسية بين الآلهة ، التى اعتقدوا أن كل المخلوقات كالشجر والطيور والرياح والبشر جاءت نتيجة لها . ثم عبدوا الشمس لأنها ضرورية

للوجود ، ثم المطر ، ثم سائر قوى الطبيعة . والبعض عبدوا الملك لأن له سلطةً على البشر .

وقد كان لأهل بابل فى عهد إبراهيم آلهة كثيرة : فقد عبدوا النار والشمس والقمر والنجوم ، ثم عبدوا « نمرود » الذى كان جباراً ، ثم أطلق عليه فيما بعد اسم « مردوخ » وتحول بعد ذلك إلى « بعل » .

وكان للقمر إله إسمه « سين » ، وزوجته « نينجال » إلاهة القمر ، وأحياناً يسمونها « نينا » ومنها جاء اسم مدينة نينوى .

ومن أسماء إلاهة القمر أيضاً « عشتار » أو « عشتارَوث » وهى رمز للرغبة الجنسية ، وفى عبادتها كانت تمارس ألوان من البغاء والفسق بواسطة كاهنات فى هيكلها ، بل إن النساء كُنَّ يُحرِضن على تقديم أنفسهن فى الهيكل ولو مرة واحدة على الأقل على سبيل العبادة .

وكان تارح أبو إبراهيم يعبد الأصنام ، ونحن نقرأ فى قول يشوع ما يؤكد ذلك :

« هكذا قال الرب إله إسرائيل : آباؤكم سكنوا فى عَبْر النهر منذ الدهر . تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور وعبدوا آلهة أخرى . فأخذت إبرهيم أباكم من عبر النهر وسرت به فى كل أرض كنعان وأكثرت

نسله وأعطيته اسحق ... » (يشوع ٢٤ : ٢ ، ٣) .

هنا نرى الله يركز على فكرة إبعاد إبراهيم عن عبدة الأصنام ، وتخصيصه هو ونسله من بعده لعبادة الإله الواحد . ونلاحظ أن عزل الرب له ولنسله مرتبط بوعد أن الله سيباركه ويجعله بركة . « فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وتكون بركة .. وتتبارك فيك قبائل الأرض » (تك ١٢) .

على أن العقيدة الإلهية فى الديانة اليهودية ، وضحت معالمها باعطاء الرب الوصايا العشر والناموس للشعب اليهودى . والملامح الأساسية لهذه العقيدة تتلخص فى الأمور التالية :

[١] يهوه هو إله إسرائيل :

فأساس علم اللاهوت العبرى هو الإيمان بيهوه إله إسرائيل . فعندما ظهر الله لموسى فى العليقة وسأله موسى عن اسمه ليذكره لشعب إسرائيل لكى يصدقوا رسالته قال الله لموسى :

« يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله اسحق وإله يعقوب ... هذا اسمى إلى الأبد ، وهذا ذكرى إلى دور فدور » (خر ٣ : ١٥) .

كان « يهوه » هو الذى أخرجهم من أرض مصر بذراع قوية ، وهو الذى شق أمامهم البحر ، وهو الذى أهلك أعداءهم . ومن فرط

تقديسهم للفظ الجلالة « يهوه » لم يكونوا ينطقونه بألسنتهم كانوا ينطقون بدلاً من لفظ « يهوه » لفظ « أدونای » ومعناها « الرب » أو « السيد » لذلك فنحن كلما قرأنا كلمة « الرب » فى العهد القديم ، ففى الغالب يكون الأصل المكتوب فى اللغة العبرية هو « يهوه » .

وعندما كان الشعب ينشد ، كان يسبح الرب أى « يهوه » . مثل تسبحة الخروج من مصر التى جاء فيها :

« أرنم للرب فإنه قد تعظّم .
الفرس وراكبه طرحهما فى البحر .
الرب قوّتى ونشيدى ، وقد صار خلاصى .
هذا إلهى فأمجده . إله أبى فارفعه .
الرب رجل الحرب . الربّ اسمه .
من مثلك بين الآلهة يا رب .
من مثلك معتزاً فى القداسة
مخوفاً بالتسابيح .. صانعاً عجائب » .

(خر ١٥)

على أننا نلاحظ على عبادة الله فى هذه الفترة الأمور التالية :

(أ) إنه فى المراحل الأولى لعبادة يهوه ، لم يكن الاعتقاد بيهوه ينفى وجود آلهة أخرى للشعوب الأخرى . كان « يهوه » هو إله إسرائيل ،

وكان الشعب لا ينكر وجود آلهة أخرى للشعوب الأخرى ؛ كما كانت الشعوب الأخرى تقرّ أن إله إسرائيل هو « يهوه » وكانوا يعترفون بقدرته وعجائبه ، لكنهم كانوا يتمسكون بآلهتهم هم .

فعندما قامت الحرب بين إسرائيل والفلسطينيين فى أواخر حكم القضاة وفى عهد عالى الكاهن ، حمل الشعب تابوت عهد الرب معهم إلى الحرب ، ويروى كاتب سفر صموئيل الأول قائلاً :

« وكان عند دخول تابوت عهد الرب إلى المحلة أن جميع إسرائيل هتفوا هتافاً عظيماً حتى ارتجت الأرض . فسمع الفلسطينيون صوت الهتاف فقالوا : ما هو صوت هذا الهتاف العظيم فى محلة العبرانيين . وعلموا أن تابوت الرب جاء إلى المحلة . فخاف الفلسطينيون لأنهم قالوا : قد جاء الله (يهوه) إلى المحلة . وقالوا ويل لنا لأنه لم يكن مثل هذا منذ أمس ولا ما قبله ، ويل لنا من ينقذنا من يد هؤلاء الآلهة القادرين . هؤلاء هم الآلهة الذين ضربوا مصر بجميع الضربات فى البرية . تشددوا وكونوا رجالاً أيها الفلسطينيون » (١ صم ٤ : ٥ — ٩) وحارب الفلسطينيون بقوة وانتصروا على إسرائيل ووقع تابوت عهد الله فى الأسر .

وكان فى شعب إسرائيل من يعتقد أن للشعوب الأخرى آلهة تساعدهم ، وكل ما يعطيه الإله لشعبه يكون ملكاً لهم . ويظهر هذا على سبيل المثال من قول يفتاح قاضى إسرائيل إلى ملك بنى عمّون

عندما كان هذا الملك يريد أن يمتلك أرض الأموريين . قال له :

« والآن الرب (يهوه) إله إسرائيل قد طرد الأموريين من أمام شعبه إسرائيل . أما فأنت تمتلكه ؟ أليس ما يمّلكك إياه كموش إلهك تمتلك ؟ » .

(قض ١١ : ٢٣ ، ٢٤)

كان شعب إسرائيل يعتقد أن يهوه صنع عهداً معهم هم فقط ، وهو يطلب منهم عبادته باعتباره قد اتخذهم نصيباً له . « إن قسم الرب هو شعبُه . يعقوب حبلُ نصيبه » (تث ٣٢ : ٩) .

ومع أن الله كان يعلن للشعب أنه الإله الوحيد ، لكن الشعب اعتبر أن يهوه إله لهم هم فقط دون سائر الشعوب . وكان الله يذكرهم بغير ذلك كما خاطبهم على فم موسى بالقول :

« هل شرع الله أن يأتي ويأخذ لنفسه شعباً من وسط شعب بتجارب وآيات وعجائب وحرب شديدة وذراع رفيعة ومخاوف عظيمة مثل كل ما فعل لكم الرب إلهكم في مصر أمام أعينكم . إنك قد أُريتَ لتعلم أنّ الرب (يهوه) هو الإله . ليس آخر سواه ... فاعلم اليوم وردد في قلبك أن الرب (يهوه) هو الإله في السماء من فوق وعلى الأرض من أسفل ليس سواه » (تث ٤ : ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩) .

(ب) ويجدر بنا أن نلاحظ الفرق بين ما كان ينادى به معلمو الدين ، وبين الممارسات الشائعة عند عامة الناس . فإن وجود ديانة سامية التعليم ، لم يمنع عامة الشعب من الاعتقاد ببعض الخرافات وممارستها . لذلك نجد بعض شخصيات العهد القديم تتمسك بخرافات تدور حول الترافيم والأفود والأوريم والتميّم .

والترافيم كلمة عبرية معناها « مسعدات » وهى عبارة عن أصنام صغيرة الحجم كان الناس يعتقدون أنها تجلب الحظ ، ويستشيرونها فى بعض الأمور . وتعتبر عند بعض الناس مثل الأحجبة التي يحتفظون بها فى البيت للفأل الحسن . وقد استعملها لابان فى حاران ، وسرقت ابنته راحيل زوجة يعقوب الترافيم وحملتها إلى كنعان (تك ٣١ : ١٩ ، ٣٤) ولم يكن ليعقوب علم بذلك (تك ٣١ : ٣٢) ولما وصل يعقوب إلى شكيم أمر أهل بيته وكل من كان معه أن يعزلوا الآلهة الغريبة (الترافيم) التى بينهم (تك ٣٥ : ٢ – ٤) .

وفى أيام القضاة كان لميخا الذى من جبل أفرايم مذبح خاص وكاهن بأفود وترافيم وتمثال منحوت وتمثال مسبوك (قض ١٧ : ٤ و ٥ ؛ ١٨ : ٤) وبواسطتها كان ميخا يظن أنه يستشير الرب (قض ١٨ : ٥ و ٦) ، وقد أشار صموئيل النبى إلى أن الترافيم خطية وكذلك العرافة والوثن (١ صم ١٥ : ٢٣) ومع ذلك كان

يوجد فى بيت داود ترافيم لزوجته (١ صم ١٩ : ١٣) . وقد آباد يوشيا الترافيم مع غيرها من الأصنام (٢ مل ٢٣ : ٢٤) ومع ذلك فقد كان بين الشعب بعد رجوعه من السبى من يسأل الترافيم (زكريا ١٠ : ٢) .

والأفواد والأوريم والتميّم ، هى جزء من ملابس الكهنة . فالأفود ثوب كان يلبسه رئيس الكهنة ويحتوى على اثنى عشر حجرًا كريماً موضوعة فى أربعة صفوف لاستخدامها فى القرعة المقدسة ، ومعها الأوريم والتميم . ومعنى (أوريم) أنوار وهى جمع (أور) أى نور . ومعنى (تميم) كمالات . وهما شيئان صغيران وفى الغالب حجران يستخدمهما رئيس الكهنة فى معرفة إرادة الله فى الأمور الكهنوتية أو السياسية القومية (عدد ٢٧ : ٢١ ؛ ١ صم ٢٨ : ٦ ؛ عزرا ٢ : ٦٣ ؛ نح ٧ : ٦٥) . وقد كان الناس يغالون فى أهمية هذه الأشياء فى معرفة ارادة الله لدرجة أن البعض كان يقدسها كاصنام (قض ٨ : ٢٧ ؛ ١٧ : ٥ ؛ ١٨ : ١٤ ؛ هو ٣ : ٤) . وقد أبطل استعمال هذه الأشياء فى إلقاء القرعة ، فى فترة ما بين العهدين .

ومن بين الخرافات وألوان السحر التى كانت شائعة فى الديانة الشعبية لليهود استحضار الأرواح والعرافة ، رغم أن قيادات الشعب بناء على ناموس الله ، كانت تحترمها . فقد ذكر أن شاول

الملك نفى أصحاب الجان والتوابع (١ صم ٢٨ : ٣) ومع ذلك فقد لجأ هو نفسه إلى امرأة صاحبة جان فى عين دور لتستحضر له روح النبى صموئيل (١ صم ٢٨) . وهكذا نرى اختلاط الديانة الحقيقية ببعض أعمال السحر والشعوذة .

(جـ) ثم نلاحظ أيضاً أن الشعب عندما استقر فى أرض كنعان وعاش فى علاقات سلمية مع جيرانه من الشعوب ، فانه تأثر بديانات جيرانه وآلهتهم لدرجة أن سليمان الملك إذ تزوج بنساء أجنبيات امَلْنَ قلبه وراء آلهة أخرى فذهب وراء عشتاروث إلاهة الصيدونيين ، وملكوم إله العمونيين (١ مل ١١ : ٥ – ٧) . أما أخآب الملك فقد كان أول من حاول أن يجعل عبادة البعل جنباً إلى جنب مع عبادة يهوه كديانة قومية لإسرائيل (١ مل ١٨ : ١٩) لذلك قاومه إيليا النبى مقاومة شديدة .

(د) على أننا نلاحظ أن عبادة يهوه استطاعت أن تقاوم عبادة الآلهة الوثنية فى بعض المظاهر ، ومنها أنها لم تتعرض بالمرة لأن تختلط بفكرة الانثوية فى الآلهة كالعشتاروث مثلاً ، كما أنها لم تتأثر بفكرة تقديم الذبائح البشرية إلى الآلهة ، وكان هذا أمراً شائعاً فى الديانات الوثنية .

والحادثة الوحيدة التى نرى فيها مثل هذا الأمر حادثة يفتاح الجلعادى الذى نذر أنه إذا انتصر على بنى عمّون فانه سيقدّم أول

من يخرج من بيته ذبيحة للرب ... وإذا باول من يخرج للقائه كان ابنته الوحيدة فاضطر رغم حزنه أن يتمم نذره (قض ١١ : ٣٠ – ٤٠) .

وهذا يدل على أن عادات الأمم الوثنية كانت تحاول اختراق عبادة يهوه فى بعض الأحيان .

ومن بين هذه العادات تقديم الأطفال للآلهة بإجازتهم فى النار كما فعل آحاز الملك وقد ذكر الكتاب ادانة هذا العمل بقوله إن آحاز « سار فى طريق ملوك إسرائيل حتى إنه عبَّر ابنه فى النار حسب أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل » (٢ مل ١٦ : ٣) . وقد قاوم الأنبياء فيما بعد تقديم الأطفال كذبائح باعتبارها امراً مكروهاً عند الله إذ قال الله على فم إرميا عن الشعب إنهم « بنوا مرتفعات توفة التى فى وادى ابن هنّوم ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار الذى لم آمر به ولا صعد على قلبى » (إر ٧ : ٣١) .

وتوجد بعض الحالات الأخرى التى يحاول بعض الشراح تعليلها مثل تعليق رؤوس شعب شطيّم ، وقتل جميع المنقادين إلى عبادة « بعل فغور » بسبب جريهم وراء الآلهة الغريبة وزناهم مع بنات مواب (عدد ٢٥ : ١ – ٥) أو صلب أبناء شاول على الجبل « أمام الرب » (٢ صم ٢١ : ٩) أو التحريم وهو القتل

الجَمَاعى لمجتمعات بأكملها مثل سكان « يابيش جلعاد » (قض ٢١ : ١٠) أو عماليق (١ صم ١٥) وقد علل بعض الشراح هذه الأفعال بأنها كانت فهماً ناقصاً من الشعب اليهودى لمشيئة الله وأنها كانت بقايا العادات الهمجية للشعوب البدائية لأن الشعب لم يكن قد أدرك بعد سموّ أخلاقيات العبادة الإلهية ليهوه ؛ وإن كان غيرهم من الشرّاح يتمسكون بأن تلك كانت تعليمات واضحة من الله عقاباً لهذه الجماعات أو لهؤلاء الأفراد على شرّهم ، ومحاولة لاستئصال آثار الوثنية والشر من جماعة الرب .

[٢] طبيعة وشخصية يهوه تظهر من أعماله :

فالعهد القديم لا يحاول أن يقدّم لنا وصفاً عن طبيعة الله أو شخصيته فى هذه الفترة ، ولكنه يترك الناس يستنتجون ذلك من أعماله .

ففى ذلك العصر – ما قبل الأنبياء – كان العمل الظاهر ليهوه أنه خلّص الشعب من العبودية فى مصر بذراع قوية ويد ممدودة ، وأدخلهم إلى أرض كنعان ، وطرد أمامهم شعوباً كثيرة ، لذلك اعتبروا أن الرب « رجل الحرب » أو « رب الجنود » – وفى أغنية موسى وبنى إسرائيل بعد الخروج نجد القول :

« الرب رجل الحرب ... يهوه اسمه » (خر ١٥ : ٣) وتوجد

اشارة فى سفر العدد إلى كتاب قديم يصف رحلات الشعب حتى دخولهم أرض كنعان واسم الكتاب « كتاب حروب الرب » (عدد ٢١ : ١٤) وحتى علاقة الله بالعالم الطبيعى وقوى الطبيعة ، اعتبروها علاقة مساعدة فى الحروب . ففى أغنية دبورة وباراق قالت :

« تزلزلت الجبال من وجه الرب ..
وسيناء هذا من وجه الرب إله إسرائيل ...
الكواكب من حُبُكِها حاربت سيسرا ...
نهر قيشون جرفهم
نهر وقائع نهر قيشون
دوسى يا نفسى بعزّ » (قض ٥ : ٤ ، ٢٠ – ٢١)

وفى سفر يشوع نرى أن الله أوقف الشمس والقمر ليخلّص شعبه من الأموريين فى أثناء الحرب معهم (يش ١٠ : ١٢) .

وفيما بعد نرى أن الله يستخدم الطبيعة لتأديب شعبه على خيانتهم وخطيتهم ، كما نرى فى الوباء الذى ضرب به الرب الشعب فأهلك سبعين ألف رجل (٢ صم ٢٤ : ١٥) أو منع المطر عن السقوط فى عهد أخآب (١ مل ١٧ : ١) .

[٣] أهم صفة ليهوه أنه شخصية أخلاقية :

والمقصود بأن الله « شخصية » هو أنه تعالى « ذات » ، ويختلف تماماً عن كونه فكرة أو قوّة ؛ ومع أنه غير محدود كسائر الذوات أو الشخصيات ، لكنه وجود قائم بذاته .

والمقصود بأنه شخصيةٌ « أخلاقية » أنه يتصرف بناء على اختياره الحرّ ، وأن له خطة وهدفاً يضعه لذاته ، ويتصرف باختياره الحرّ لتحقيق هذا الهدف . وعلى هذا الأساس فإن الله يفرض أيضاً على من يعبدونه سلوكاً معيناً حسب قانون يضعه هو القانون الأخلاقى .

وينبغى أن نلاحظ هنا أن الله هو الذى يضع القانون الأخلاقى ، وليس العكس ... بمعنى أن ما يطلبه الله لتحقيق خطته يكون هو الخير ؛ وما ينهى عنه لأنه يتعارض مع قصده هو الشرّ ... وفى هذا يختلف الأمر عن سلوك الإنسان ، وهو شخصية أخلاقية أيضاً ، إنما الإنسان لا يضع القانون الأخلاقى بل يطيعه ، بينما الله هو مصدر القانون الأخلاقى . فالخير يكون خيراً لأن الله يطلبه ، والشر يكون شراً لأن الله ينهى عنه .

وهنا نرى أنه بسبب محدودية اللغة وعجزها عن التعبير ، فانه كثيراً ما يَنْسَب إلى الله تعالى بعض الاتجاهات التى لو وجدناها فى

البشر فانها قد تعيبهم ، مثل الغيرة والغضب والترفع والتعالى والانعزال ... ولكن كلّ هذه التعبيرات إنما هى محاولة اللغة البشرية القاصرة لتؤكد أن الله شخصية أخلاقية ، ويجب ألا نقارنها بمدلول نفس الألفاظ على تصرفات البشر .

فاذا قيل إن الله « غيور » مثلاً (خر ٢٠ : ٥) فلا يُقصد بذلك أن ننسب إليه تعالى ما ننسبه إلى الزوج الغيور أو الزوجة الغيورة أو الشخص الذى يحب أن يستحوذ على كل ما هو جميل وممتاز دون غيره ، وإنما لأن الله هو الشخصية الكاملة المطلقة التى لا تقبل أن يكون لها نظير ، لأنه تعالى فعلاً ليس له نظير ، لذلك فهو يريد السيادة الكاملة على قلوب البشر لأن هذا حقّه المطلق لذلك يقول : « لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التى حولكم . لأن الرب إلهكم إله غيور فى وسطكم لئلا يحمى غضب الرب إلهكم عليكم فيبيدكم عن وجه الأرض » (تث ٦ : ١٤ ، ١٥) . أو كما قال فى إشعياء « أنا الرب هذا اسمى ، ومجدى لا أعطيه لآخر ولا تسبيحى للمنحوتات » (إش ٤٢ : ٨) .

وعلى ذات القياس عندما يتحدث الكتاب عن غضب الله ، لا يقصد التغييرات الانفعالية التى تحدث عند الناس وتقود إلى انفلات الأعصاب والتصرف الأهوج ، ولكن الكتاب يقصد عدم الرضا على التصرف السيء ، وعدم السرور به ، والاتجاه إلى

عقاب المسيء لأجل تأديبه أو تقويمه .

وعندما نقرأ قول الرب لموسى : « حذّر الشعب لئلا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون . وليتقدس أيضاً الكهنة الذين يقتربون إلى الرب لئلا يبطش بهم الرب » (خر ١٩ : ٢١ ، ٢٢) ، فاننا لا ينبغى أن نقارن ذلك بما نوقعه من البشر والرؤساء المترفعيّن عن عامة الناس ، وإنما هذه تعبيرات بشرية لتغرس فى نفوس البشر الشعور بأن الله تعالى ذات متسامية متميزة عن البشر ، ولتأكيد ذاتية الله وشعوره بذاته أنه تعالى يتميز عن كل من عداه .

ومع أن الله يبدو فى علاقاته مع الشعب وتعامله معهم كأنه يفرض عليهم الأحكام بصورة آمرة أو عرفية عن طريق القضاة أو الكهنة أو الأنبياء ، إلا أننا نلاحظ أنه ابتداء من عهد موسى قد أعطى الله للناس « شريعة » (توراة بالعبرية) ، وطلب من الناس أن يطلبوا الحق » (مشباط بالعبرية » .

فالشريعة هى مجموعة الأوامر والنواهى والعادات التى تقرر علاقة الإنسان بغيره ؛ والحقّ هو ما تقرره الهيئة المسئولة عن القضاء فى الحالات الفردية وفى نور الشريعة . ونحن نقرأ فى سفر الخروج قول موسى لحميه « إن الشعب يأتى ليسأل الله إذا كان لهم دعوى يأتون إلىّ فأقضى بين الرجل وصاحبه وأعرفهم فرائض

الله وشرائعه » (خر ١٨ : ١٥) وقد نصحه حموه بأن يختار رؤساء على الشعب يقضون القضايا الصغيرة ، أما الدعاوى العسرة فكانوا يجيئون بها إلى موسى .

وهكذا نرى الله يسمح لأصحاب الرأى والمشهود لهم بالتقوى والفهم أن يفسروا شريعته ويقضوا بها بين الناس . وبذلك انتقل الاهتمام من الدائرة القومية وصالح الجماعة ، إلى صالح الأفراد أيضاً دون إهمال صالح الجماعة .

إلا أن نقطة الضعف التى يلاحظها بعض الدارسين فى أخلاقيات الشعب العبرانى القديم ، أن اخلاقياته كانت تطبَّق فى دائرة الشعب العبرانى فقط دون أن تشمل باقى الشعوب . فبعض التصرفات كانت ممنوعة بين العبرانى وأخيه العبرانى ، ومسموحة بين العبرانى والغريب . فمثلاً نقرأ فى سفر التثنية (٢٣ : ١٩ ، ٢٠) « لا تُقْرِض اخاك بربا ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شىء ما مما يُقْرَض بربا . للأجنبى تُقْرِض بربا ولكن لأخيك لا تُقرِض بربا لكى يباركك الرب إلهك » .

وصورة أخرى لضعف المستوى الخلقى فى تلك المرحلة الأولى من حياة الشعب كانت فى أنهم يستحلّون لأنفسهم أموال الغرباء عنهم ، كما حدث عند الخروج عندما طلب اليهود من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً ، على سبيل الاستعارة

وسلبوا المصريين . (خر ١١ : ١ – ٣ ؛ ١٢ : ٣٥ – ٣٦) .

وقال بعض الشراح لتبرير هذه الأفعال إن الله سمح بها بدل الأجرة التى كانت تستحق للعبرانيين مقابل أعمالهم التى سخّرهم فيها المصريون ، على أن بعض الشراح المحدثين يرون فى ذلك التصرف ضعفاً فى المستوى الأخلاقى ، راجع إلى بدائية تفكير الشعب وقساوة قلوبهم ، وعدم امكانية ارتفاعهم فجأة إلى المستوى السامى للديانة الذى يعامل جميع الناس معاملة متساوية ، وهذا هو المبدأ الذى أعلنه السيد المسيح له المجد « وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا بهم أنتم أيضاً هكذا » .

ثانيـاً

العقيدة الإلهية
فى عصر الأنبيـاء

ونقصد بعصر الأنبياء الفترة التى استقر فيها الشعب اليهودى فى أرض كنعان وصار له ملوك وأنبياء . وهو يبدأ فى نحو القرن العاشر قبل الميلاد . ولعل أهم تطوّر فى العقيدة الإلهية فى هذه الفترة هو وضوح الناحية الأخلاقية فى علاقة الله بشعبه ومطاليبه منهم .

وقد ساعد فى وضوح هذا الجانب أن الشعب بعدما استقر فى الأرض ، ابتدأ يعيش حياة أكثر راحة وأماناً ، فاتجه نحو مظهريات العبادة دون جوهرها ، وتأثر إلى حد ما بحياة الشعوب التى حوله وكانت حياة مستهترة فى غالب الأحيان ، لذلك كان الأنبياء يحملون إلى الشعب اليهودى رسالة التحذير والانذار واعلان غضب الله على الخطية .

فى هذه الفترة ظهرت بجلاء من خلال رسائل الأنبياء الصفات الأخلاقية لله تعالى ومن أهمها الصفات التالية :

[١] البـــرّ :

ومعنى البرّ هو العدل ، وعكسه الظُلْم أو الجَوْر . فقد أعلن الأنبياء فى تلك الفترة أن يهوه ليس مثل آلهة الوثنيين ... والفكرة الشائعة عن آلهة الوثنيين أنها آلهة تهتم بصالح شعوبها وخيرهم وانتصارهم أياً كانت حياتهم وأخلاقهم ... لقد أعلن الأنبياء أن علاقة الله بشعبه ليست علاقة طبيعية باعتباره إلههم الاقليمى الخاص ؛ ولكنها علاقة عهد نعمة أظهرها الله من نحوهم فضلاً دون امتيازهم عن سائر الشعوب ودون استحقاقهم ، لكنهم ازاء عهد النعمة هذا مرتبطون أن يكونوا أوفياء لله مطيعين لشريعته .

فاذا صادفتهم مصائب أو هزائم ، فالتفسير لها ليس عجزاً من إلههم مقابل آلهة الشعوب الأخرى ، ولكن تلك المصائب إنما هى عقاب لهم لأنهم لم يعيشوا فى المستوى الأخلاقى الذى يريدهم الله أن يكونوا عليه .

يقول إرميا فى مراثيه : « اذكر يا رب ماذا صار لنا . أشرق وانظر إلى عارنا . قد صار ميراثنا للغرباء . بيوتنا للأجانب ... أعطينا اليد للمصريين والأشوريين لنشبع خبزاً .. سقط إكليل رأسنا ... ويل لنا لأننا قد أخطأنا » (مراثى ٥) .

ولأن يهوه إله بار ، فهو يريد من شعبه أن يهتم بالبرّ أكثر من

العبادة الطقسية الظاهرية . وهكذا يقول ميخا :

« بم أتقدم إلى الرب
وأنحنى للإله العلى
هل أتقدم بمحرقات
بعجول أبناء سنة ؟
هل يسر الرب بألوف الكباش
بربوات أنهار زيت ؟
هل أعطى بكرى عن معصيتى
ثمرة جسدى عن خطية نفسى ؟
قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح ،
وماذا يطلبه منك الرب ، الا أن تصنع
الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعاً مع إلهك »
(ميخا ٦ : ٦ – ٨)

وعندما نقرأ الأصحاحات الثلاثة الأولى من سفر عاموس النبى ، يتبين لنا أن الله كإله بار ، سوف يدين جميع الشعوب ، وليست علاقته قاصرة على شعب إسرائيل ، ولكن لأجل عهده مع شعب إسرائيل ، فإنه يتطلب منهم شعوراً أكثر بالمسئولية .

فبينما نقرأ دينونته وعقابه لدمشق من أجل بعض الذنوب ؛ وكذلك صور ، وبنى عمّون ، وموآب .. لكنه يقول لبنى

إسرائيل :

« إياكم فقط عرفت [أحببت محبة خاصة]
من جميع قبائل الأرض ، لذلك أعاقبكم على جميع
ذنوبكم » (عاموس ٣ : ٢) .

هذا الإله البار الذى يعاقب الأمم والشعوب على خطاياها ، يعاقب الأفراد أيضاً .(*) .

ونحن نرى إرميا يحاول أن يقدّم هذه الفكرة إلى الشعب بقوله : « فى تلك الأيام لا يقولون بعد الآباء أكلوا حِصرِماً وأسنان الأبناء ضرست . بل كل واحد يموت بذنبه ، كل إنسان يأكل الحِصرِم تضرس أسنانه » (إر ٣١ : ٢٩ ، ٣٠) .

كما شرح حزقيال هذه الفكرة بتوسع فى الأصحاح الثامن عشر ، ولخصها بالقول : « النفس التى تخطىء هى تموت . الابن لا يحمل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من إثم الابن . برّ البار عليه يكون ، وشرّ الشرير عليه يكون » (حز ١٨ : ٢٠) .

(*) لعلنا نلاحظ أن علاقة الله بدأت بالشعب أولاً ثم بالأفراد ، خلافاً لما يتصوره بعض أصحاب النظرة التطهرية الفردية Puritans الذين يقولون إن علاقة الله هى علاقة بالفرد ، ويبنون نظامهم اللاهوتى على هذا الأساس .

وطبيعيّ أن هذا لا ينفى دينونة الله للشعوب وافتقاد الله ذنوب الآباء فى الأبناء فى بعض الخطايا والشرور الاجتماعية للجماعات ، أو فى عوامل الوراثة .

[٢] القـداســـة :

فى هذه الفترة اكتسبت فكرة القداسة معنى يجعلها أقرب إلى البرّ وإلى الصلاح . والمعنى الأصلى للشىء المقدّس يتضمن فكرة التخصيص والانفصال أو الاعتزال . وينطبق هذا المعنى على الله تعالى باعتباره « قدوس » أى منفصل عن البشر ، ومتسام فوقهم وليس له مثيل . ولكن عند تطبيق هذا المعنى على الأشياء أصبح المقصود التخصيص لعبادة الله كالآنية المقدسة والأماكن المقدسة ، وعلى الأشخاص أيضاً تقديسهم للرب أى تخصيصهم للرب .

لكن الأنبياء تقدموا بمعنى القداسة ليصير لها معنى أخلاقى ، فعندما رأى إشعياء السيد الرب فى الهيكل والملائكة تهتف : « قدوس قدوس قدوس رب الجنود » ، شعر هو بخطيته وإثمه ونجاسة شفتيه (إش ٦) وقد وصف عاموس أفعال إسرائيل الشريرة وظلمهم للمساكين وسلوكهم غير الأخلاقى بأنه « تدنيس » لاسم قدس الرب (عاموس ٢ : ٧) ، وهكذا اقترب

معنى « البرّ » من معنى « القداسة » فالأول اجراء العدل ، والثانية نقاوة ورفعة وسمو فى دوافع الحياة . وقد جمع إشعياء هاتين الصفتين معاً فى قوله : « ويتعالى ربُّ الجنود بالعدل ، ويتقدّس الإله القدوس بالبرّ » (إش ٥ : ١٦) .

[٣] إلــه الجمـــيع :

ونحن نلاحظ أنه من عصر عاموس فصاعداً تحدّث الأنبياء عن سلطان الله الأخلاقى وحكمه المطلق على جميع الشعوب ، وأن سائر الشعوب ما هى إلا أدوات أو عصا فى يمينه يستخدمها لتحقيق أغراضه . فيقولون عن أشور مثلاً إنه « قضيب غضب الرب » (إش ١٠ : ٥) ويقولون عن الأمم الغازية المغيرة المخربة إنها « أدوات سخطه » (إش ١٣ : ٥) . ونرى الأنبياء يدينون كلَّ العبادات الأصنامية والايمان بتعدد الآلهة ، إلا أن عقيدتهم كانت أن جميع تلك الأمم ستنال نصيباً فى يهوه عن طريق مجيئها إلى الإيمان اليهودى كما نقرأ فى زكريا ٨ : ٢٣ : « هكذا قال رب الجنود . فى تلك الأيام يمسك عشرة رجال من جميع ألسنة الأمم يتمسكون بذيل رجل يهودى قائلين نذهب معكم لأننا سمعنا أن الله معكم » .

وقد كان هذا هو أمل الشعب اليهودى فى عصر الأنبياء

« ويكون فى آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتاً فى رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجرى إليه كل الأمم ، وتسير شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك فى سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب » (إشعياء ٢ : ٢ و ٣) .

ونحن الآن فى نور العهد الجديد واعلان الله ذاته فى يسوع المسيح ، نفسّر هذه الأقوال تفسيراً آخر روحياً ، ولكنَّ فهم الناس فى ذلك العصر كان محدوداً بتلك الصورة وذلك الأمل : ان يهوه سيكون إلهاً لجميع الشعوب ، وهذا فى حد ذاته تَقدّم فى الفكر عما كان عليه الشعب فى الفترة السابقة عندما اعتبروا أن يهوه إلههم الخاص دون غيرهم من الشعوب .

[٤] إلــه واحــد :

إن وحدانية الله معلنة منذ اعطاء الشريعة ، ويظهر ذلك من ترديد كاتب سفر التثنية هذه الحقيقة وهو يعيد اعلان الشريعة فى سفر التثنية(*) .

(*) هناك من العلماء من يقول إن سفر التثنية كتب فى وقت متأخر عن باقى الأسفار الخمسة .

إلا أن كثرة الآلهة بين الشعوب الوثنية أزاغت أفكار بعض أفراد الشعب اليهودى ، ولذلك قام الملك يوشيا باصلاح دينىّ طهرَّ فيه البلاد من عبادة البعل وسائر الديانات الوثنية التى كانت قد تواجدت مع عبادة يهوه ، وأخرج من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل وللسارية ولكل أجناد السماء التى عبدها الناس وأحرقها خارج أورشليم ، ولاشى كهنة الأصنام وأباد كل مظاهر العبادة الأصنامية وشبه الأصنامية (٢ مل ٢٣ : ١ – ٢٠) .

كان يوشيا ملكاً على مملكة يهوذا وهى المملكة الجنوبية ، ولكنه جعل هذا الاصلاح الدينى يصل فى مداه إلى المملكة الشمالية – مملكة إسرائيل والتى كان قد أنشأها مؤسسها يربعام ابن نباط ، على تقبّل عبادة شبه أصنامية .

وفى سفر إشعياء نرى التعليم بوحدانية الله وسلطانه المطلق واضحاً تمام الوضوح وبخاصة فى الأصحاحات من ٤٠ إلى ٦٦ .

فلا يوجد إله سوى يهوه ، وجميع الآلهة الأخرى مصنوعة باليد ، والله يمارس سلطانه فى السيادة على العالم الطبيعى وعلى التاريخ . وقد أقام الله كورش ملك الفرس ليستخدمه حتى يعيد المسبيين ، ليؤدى إسرائيل رسالته كنور للأمم وخلاص للشعوب

(إش ٤٢ : ١ – ٧ ٤٩ : ١ – ٦) والله ينادى الجميع قائلاً : « أليس أنا الربَّ ولا إله آخر غيرى . إله بار ومخلّص . ليس سواى . التفتوا إلىَّ واخلصوا يا جميع أقاصى الأرض لأنى أنا الله وليس آخر . بذاتى أقسمت خرج من فمى الصدق كلمة لا ترجع إنه لى تجثو كلُّ ركبة يحلف كلُّ لسان » (إش ٤٥ : ٢١ – ٢٣) .

[٥] **الخالق والسيّد** :

بعد توكيد وحدانية الله ، ابتدأت باقى مقتضيات الوحدانية تظهر فى اعلانات الله للأنبياء ، ومنها أن الله هو الخالق والسيد والمتسلط على العالم .

« هكذا يقول الله الرب خالق السمٰوات وناشرها ، باسط الأرض ونتائجها ، معطى الشعب عليها نسمةً والساكنين فيها روحاً » (إش ٤٢ : ٥) « هكذا يقول الرب فاديك وجابلك من البطن . أنا الرب صانع كل شىء ناشرٌ السمٰوات وحدى باسطٌ الأرض . من معى » (إش ٤٤ : ٢٤) .

وهكذا تظهر صفاته من أعماله .

« فليس عن فهمه فحص » (إش ٤٠ : ٢٧) والماضى والمستقبل معروفان لديه (إش ٤٢ : ٩) ولا يمكن لقوة ما فى

الطبيعة أو فى التاريخ أن تقف أمامه أو تعترض سبيل اتمام مقاصده ، فهو « يفتح على الهضاب أنهاراً وفى وسط البقاع ينابيع » (إش ٤١ : ١٨) ويقول :

« لا منقذ من يدى . أفعل ومن يرُد » (إش ٤٣ : ١٣) .

[٦] العطـــوف والمحـــب :

وقد عبرَّ الأنبياء عن هذه الصفة بصور متعددة تعتبر تمهيداً لعقيدة العهد الجديد فى الأبوّة الإلهية للبشر . فهو « كراع يرعى قطيعه بذراعه يجمع الحملان وفى حضنه يحملها ويقود المرضعات » (إش ٤٠ : ١١) وهو يجمع أولادهُ وبناتِه المشتتين « ايتِ ببنيَّ من بعيد وبناتى من أقصى الأرض » (إش ٤٣ : ٦) وهو يخاطب الأمة بقوله : « بفيضان الغضب حجبت وجهى عنك لحظة وباحسان أبدى أرحمك » (إش ٥٤ : ٨) ، وحنانه على شعبه أكثر من حنان الأم « وقالت صهيون قد تركنى الرب وسيّدى نسينى . هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها . حتى هؤلاء ينْسين وأنا لا أنساكِ » (إش ٤٩ : ١٤ ، ١٥) .

ثالثـــاً
العقيـــدة الإلهيـــة
فى عصـــر ما بعـــد الســـبى

كان السبى بالنسبة للشعب اليهودى حَدَثاً هزَّ كيان الأمة جماعة وأفراداً بصورة لم يسبق لها مثيل ، وجعلها تعيد النظر فى كثير من أفكارها وعقائدها . فيها هو الشعب الذى كان يعتبر أنه شعب الله المختار ، يذوق مرارة الهزيمة والأسر ؛ وهو الذى كان يعتقد أنه ممتاز عن سائر الشعوب ... لذلك فيمكن أن نقول إن السبى ساعد على أن يتخلص الشعب من بعض معتقداته الضيّقة الأفق ، وينظر نظرة أعمق وأشمل إلى الحياة كلها وإلى الله .

ففى هذه الفترة تثبتت عقيدة وحدانية الله بشكل أعمق ، وصار يهوه إله إسرائيل هو الإله الواحد ، والإله الوحيد الذى لا غيره إله . وهو وحده ربُّ كل المسكونة ، وكلُّ الكائنات الأخرى لا يمكن أن تُقَارن به ، أو تدنو منه فى الشبه أو السمو أو العلوّ . تأييداً لما قاله المرنم : « لأنه من هو إله غير الرب . ومن هو صخرة سوى إلهنا » (مز ١٨ : ٣١) .

« للرب الأرض وملؤها . المسكونة وكلُّ الساكنين فيها » (مز ٢٤ : ١) .

« لماذا يقول الأمم أين هو إلههم . إن إلهنا فى السماء . كلمَّا شاء صنع . أصنامهم فضة وذهب عمل أيدى الناس . لها أفواه ولا تتكلم . لها أعين ولا تبصر ... مثلها يكون صانعوها بل كل من يتكل عليها » (مز ١١٥ : ٢ – ٨) .

وإذا كان هذا الإله قد سمح لشعبه بالسبى ، فإن ذلك كان عقاباً لهذا الشعب على خطاياه ، وزيغانه بعيداً عن الإله الحقيقى . ومُلْكُ هذا الإله يمتد إلى جميع الشعوب ... وقد تعمقت هذه الفكرة لدى الشعب عندما رأى انهيار دولة أشور ، ثم دولة بابل ، واستيلاء مملكة الفرس على هاتين الدولتين وغيرهما من الدول ، وانقرضت آلهتها . وقد كانت عبادة الفرس وهى الديانة الزرادشتية أقرب إلى عبادة الإله الواحد ، فمع أن تلك الديانة كانت تؤمن بمبدأين هما الخير والشر ، لكنها كانت تعبد إله الخير وهو « أهورا – مازدا » .

وقد ترسخ فى أذهان الشعب اليهودى أنه لا يوجد سوى إله حقيقى واحد هو الله ، لذلك نجد أنهم فى تلك الفترة تحدثوا عن الله مستخدمين اللفظ « الوهيم » (الله) أكثر من استخدامهم لفظ « يهوه » ، وليس معنى ذلك أنهم غيَّروا عقيدتهم فى يهوه أو تركوها ، لكنهم استخدموا لفظ « الله » حتى يؤكدوا شمولية سيادته على جميع الشعوب بدلاً من استخدام لفظ « يهوه » الشائع

عند اليهود فقط . ونلاحظ ذلك فى بعض المزامير التى يرجّح بعض العلماء أنها جُمعِت فى هذه الفترة ، كما فى سفر أيوب ، وسفر دانيآل ، وسفر الجامعة ؛ هذا بالاضافة إلى وجود هذه الظاهرة فى الأسفار التى تروى تاريخ وآداب الأمة فى فترة ما بين العهدين ، كأسفار المكابيين وسفر الحكمة وهى ضمن أسفار الأبوكريفا أو الأسفار القانونية الثانوية فى نظر بعض الكنائس .

وفى الجزء الأخير من فترة ما بين العهدين ، نرى تأثر الفكر اليهودى بالفلسفة اليونانية التى سادت العالم حينذاك ، ولذلك نرى مزيداً من تجريد فكرة الله عن الصور الحسيّة ، والاتجاه إلى التفكير المجرَّد أو التفكير العقلى . فنقرأ عن الحكمة باعتبارها منبثقة من الله ، أو الكلمة « اللوجوس » ، وتُعدّ هذه الفترة إعداداً للفكر اللاهوتى لينتقل إلى فكر العهد الجديد عن الله .

وكأنما نجد العناية الإلهية خلال ذلك التاريخ الطويل تُعدّ البشر للاعلان الأكمل الذى أُعلن فى يسوع المسيح ، الذى قال عنه إنجيل يوحنا :

« فى البدء كان الكلمة . والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . هذا كان فى البدء عند الله . كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان . فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس ... والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً » (يو ١ : ١ — ٤ و ١٤) .

٤

شخصية الله
في العهد الجديد

بعد أن درسنا تطور تفكير الناس فى فهمهم لشخصية الله فى العهد القديم ، نتقدم الآن لندرس شخصية الله كما يظهرها العهد الجديد . وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن الكتاب المقدس لا يكتمل إلا بعهديه القديم والجديد معاً ، فاعلانات الله فى العهد القديم ، ونبوات العهد القديم ورموزه لم تتحقق بصورتها الكاملة إلا بالعهد الجديد ، كما أننا لا نقدر أن نفهم العهد الجديد فهماً صحيحاً إلا من خلال التاريخ والفكر الوارد فى العهد القديم .

لذلك فإن العقيدة الإلهية فى العهد الجديد تتضمن أسمى ما وصل إليه العهد القديم عن وحدانية الله ، وروحانيته ، وقدرته ، وجودته ، وقداسته ، وبرّه ، ورحمته ، وكونه الإله الحى الحقيقى القادر على كل شىء ، الكلى القدرة والمعرفة ، والأزلى والأبدى .

ويمكننا أن نقول إن العهد الجديد لم يضف إلى الله تعالى صفات أخرى لم تكن واردة أو متضمنة فى العهد القديم ، إلا أن هناك اختلافاً واضحاً فى الاطار الذى يضع فيه العهد الجديد فكرته

عن شخصية الله . فالعهد الجديد كالقديم يفترض وجود الله كحقيقة لا تحتاج إلى إثبات ، إلا أنه يصوّر لنا الله من ناحية علاقته بالكون وبالإنسان فى صورة أكثر ثراء وعمقاً وأبعد مدى عن تصوير العهد القديم لله . فبعد أن زالت كل المفاهيم الاقليمية المحدودة عن الذات الإلهية ، ولم يعد اسم الله يرتبط بشعب إسرائيل وحدهُ ، أو يُقَارن بآلهة أخرى عن سائر الشعوب ؟ وبعد أن تأكدت الحقيقة ، أنه هو الإله الوحيد الحقيقى الذى له الأرض وملؤها والمسكونة وجميع الساكنين فيها ؛ وأنه لا يميّز شخصاً عن آخر ، أو شعباً عن آخر ؛ قدم لنا العهد الجديد مستوى من الفكر أسمى وأرقى مما جاء فى العهد القديم ، إذ اهتم بثلاثة جوانب هامة هى :

(١) اعلان الرب يسوع المسيح حقيقة الله كأب .

(٢) اعلان الرب يسوع المسيح حقيقة الله كملك .

(٣) اعلان الكنيسة المسيحية من واقع فهمها واختبارها عقيدة الإله الواحد المثلث الأقانيم أى الآب والابن والروح القدس ، ليسوا ثلاثة آلهة بل إله واحد .

أولاً
الله الآب

لم تكن فكرة أبوة الله مجهولة تماماً قبل المسيحية ، فنحن نقرأ حتى فى الديانات الرومانية واليونانية عن زيوس أو جوبيتر أبى الآلهة . وفى اليهودية نرى معنى أعمق لأبوة الله ، فالعهد القديم يبين أن الله ليس مجرد خالق إسرائيل وحافظه ، بل هو يتعامل مع شعبه كما يتعامل الأب مع أولاده . فقد قال المرنم : « كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيه » (مز ١٠٣ : ١٣) .

ويحدّث موسى شعبه فى سفر التثنية مذكراً إياهم بعمل الله معهم قائلا « وفى البرية حيث رأيت كيف حملك الرب إلهُك كما يحمل الإنسان ابنه » (تث ١ : ٣١) ويقول إشعياء : « أنت يا رب أبونا وليُّنا منذ الأبد اسمك » (إش ٦٣ : ١٦) .

وقد اعتبرت تأديبات الرب أنها نابعة من أبوّته لشعبه : « فاعلم

فى قلبك أنه كما يؤدب الإنسان ابنه قد أدّبك الرب إلهك » (تث ٨ : ٥) .

هذه العلاقة إذاً هى جزء لا يتجزأ من علاقة العهد بين الله وشعبه . على أننا نلاحظ أن هذه الفكرة فى العهد القديم لا تحتل مكاناً مركزياً وحاسماً بالشكل الذى تظهر فيه فى العهد الجديد ، فضلاً عن أنها كانت فى العهد القديم مرتبطة دائماً بشعب إسرائيل . أما فى العهد الجديد فلها أبعاد أعمق .

فمن يتأمل أقوال السيد المسيح له المجد يلاحظ أنه فى أغلب الأحيان عندما كان يتحدث عن الله ، لم يكن يذكر لفظ الجلالة « الله » كما نفعل نحن الآن ، بل كان يشير إلى الله مستخدماً لفظ « الأب »(*) .

(*) حاول بعض الناس الناطقين باللغة العربية أن يميزوا بين اللفظ (الآب) الواردة فى الترجمة العربية (بالمدّة) وبين لفظ (الأب) بالهمزة ؛ ظانين أن الأولى بالمدّة (الآب) تشير إلى الله ، والثانية (الأب) بالهمزة تشير إلى الأب الأرضى الجسدى . إنما هذا اجتهاد يبدو أنه ليس فى محله ، وربما كان البعض فى زمن الترجمة العربية يستخدمون المدّة (الآب) للتمييز وليكون لله تعالى وصف متميز ، لكن الواضح أنه فى اللغات الأخرى يستخدمون نفس اللفظ « Father » بالانجليزية ، « Père » بالفرنسية كما أنه فى اليونانية نفس اللفظ ، والفرق هو استخدام حروف الـ « Capital » التى تكتب بها أسماء الأعلام .

ويبدو أننا كمسيحيين لم نواصل استخدام نفس التعبير كما كان يستخدمه السيد المسيح ، فنحن لا زلنا نكثر من استخدام لفظ (الله) واستخدامنا للفظ (الأب) قليل ، مما يوحى بأن فكرة أبوة الله لم تتعمق فى حياتنا بالقدر الذى كان يراه الرب يسوع .

كان الرب يسوع حسب ما يبدو لنا من أحاديثه يرى أن أصدق تعبير يصف علاقة الله بالبشر هو صفة الأب ، وأن أقرب وصف لأسلوب معاملة الله للبشر هو معاملة الأب لأولاده . مع الفارق الذى ذكره يسوع وهو أن الأب السماوى كامل وصالح بما لا يقاس بالنسبة إلى الآباء الأرضيين ، ولا يمكن أن يقارن بهم . فالآباء الأرضيون ناقصون وأشرار لذلك يقول : « فان كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيّدة ، فكم بالحرى أبوكم الذى فى السماوات » (مت ٧ : ١١) . فما يتحقق ولو بصورة ناقصة فى علاقة الآباء بأولادهم ، يتحقق بصورة كاملة فى علاقة الله بالبشر . ولم يكن يسوع يفكر فى علاقة الانجاب الجسدية ، وليكن فى علاقة المحبة الشخصية والعناية والاهتمام والمسئولية .

لقد ذكر يسوع أن الله يعمل دائماً فى العالم ، وهو مبدع الوجود ، وأن كل الأشياء تحت سلطانه وأن عنايته تشمل أصغر الأشياء وأكبرها ، إلا أنه تجاوز هذا الجانب الابداعى والرعائى من عمل الله ، ليتعداه إلى اظهار صلاح الله وجودته ولطفه حتى إن

جميع الكائنات تلجأ إليه ، وهو ينعم على الجميع حتى لو كانوا اشراراً وظالمين وغير شاكرين ؛ هو يجازى المطيعين ، ويغفر للعصاة إذا طلبوا الغفران ، وشعروا بالحاجة إليه ، ويفتح قلبه للضالين . فالأبوّة عند الله هى ينبوع للمحبة الخالصة حتى لمن لا يتوقعونها ولا يستحقونها ، وهى اتجاه غافر رحيم ، مؤدب معلم ، مرّحب يدعو الجميع إلى صدره الرحيب وبابه المفتوح .

ولسنا فى حاجة إلى تأييد هذه الحقائق بآيات كتابية ، فانها واضحة وضوح النهار فى أحاديث السيد المسيح ، ويكفى أن نقرأ قصة الابن الضال فى لوقا ١٥ ؛ أو نقرأ عظة السيد المسيح على الجبل حيث نسمعه يقول :

« انظروا إلى طيور السماء .
إنها لا تزرع ولا تحصد
ولا تجمع إلى مخازن .
وأبوكم السماوى يقوتها ...
تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو .
لا تتعب ولا تغزل ..
فان كان عشب الحقل الذى يُوجد اليوم ويُطرح
غداً فى التنور يلبسه الله هكذا
أفليس بالحرى جداً يلبسكم أنتم يا قليلى الإيمان ؟

فلا تهتموا قائلين : ماذا نأكل أو ماذا نشرب
أو ماذا نلبس ، فان هذه كلها تطلبها الأمم .
لأن أباكم السماوى يعلم انكم تحتاجون إلى
هذه كلها » .

(مت ٦ : ٢٦ - ٣٢)

وقوله : « صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم
ويطردونكم ، لكى تكونوا أبناء أبيكم
الذى فى السموات فانه يشرق شمسه
على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار
والظالمين ... فكونوا أنتم كاملين كما أن
أباكم الذى فى السموات هو كامل »

(مت ٥ : ٤٤ - ٤٨)

هذا هو المعنى العام لأبوّة الله كما تبدو من أحاديث السيد المسيح ، لكننا إذ دققنا البحث لوجدنا أن الرب يسوع المسيح ، والرسل فى أسفار العهد الجديد ، يتحدثون عن اتجاهات متنوعة أو أنواع من أبوّة الله ، يختلف احدها عن الآخر بحسب من تتجه إليه هذه الأبوّة ، وهى محصورة فى ثلاثة أنواع :

(١) أبوّة الله للرب يسوع المسيح

(٢) أبوّة الله للمؤمنين

(٣) أبوّة الله لجميع الناس .

[١] أبوّة الله للرب يسوع المسيح :

أول ما نفكر فى الله الأب ينبغى أن نفكر فيه باعتباره الأب للابن الوحيد يسوع المسيح ... أو كما يقول الرسول فى العهد الجديد « مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح » .

وأبوّة الله للرب يسوع المسيح هى نوع فريد متميّز من الأبوّة ، يختلف تماماً عن معانى الأبوّة التى يعرفها البشر ، من تناسل جسدى .

وسوف نتعرض فى حديث قادم إلى حقيقة التثليث كعقيدة وليدة اختبار اختبرته الكنيسة مما دعاها أن تؤمن بإله واحد فى ثلاثة أقانيم متساوين فى القدر والمجد ، وتعتقد فى الولادة الأزلية للابن فتقول عنه فى قانون الإيمان النيقوى إنه :

« ابن الله الوحيد ، مولود من الآب قبل كل الدهور ، إله من إله ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب فى الجوهر » .

لكننا الآن سنتناول هذه البنوة والأبوّة من الناحية الكتابية أكثر

من الناحية اللاهوتية . فنلاحظ أن الرسل وصفوا الله بأنه « أبو ربنا يسوع المسيح » (رو ١٥ : ٦ ؛ ٢ كو ١ : ٣) وعلى أساس كونه كذلك « باركنا بكل بركة روحية فى السماويات فى المسيح » (أف ١ : ٣) وأنه عن طريق هذا الابن يكون لمن يختلفون فى الجنس والتاريخ والتراث ، مثل اليهود والأمم على اختلافهم « قدوم فى روح واحد إلى الآب » (أف ٢ : ١٨) ، وعندما يلقّب الله بأنه « أبونا ربنا يسوع المسيح » فان هذا المعنى يختلف تماماً عن أى أبوّة أخرى ، فان الله حقاً واحد ، لم يلد ولم يولد بالمعنى المفهوم للبشر .

إلا أننا عندما ندرس حياة السيد المسيح كما روتها الأناجيل نشعر من خلال حياة المسيح وتعاليمه وأقواله بمعرفته العميقة واختباره الواضح لهذه الأبوّة المتميّزة ...

كان حديث المسيح عن « الآب » يختلف عن حديث باقى الناس ، فمع أن اليهود كشعب كانوا يعتبرون الله أبا لهم ، كما سبق وأشرنا إلى ما جاء فى إشعياء ٦٣ : ١٦ « أنت يا رب أبونا » إلا أنهم عندما سمعوا يسوع يتحدث عن أبيه ، سمعوا نغمة غريبة على مسامعهم وفكرهم . فغالباً كان السيد المسيح يستخدم اللغة الأرامية فى حديثه ، وكان يستخدم أسلوباً أرامياً دارجاً يدل على الألفة الشديدة ، والقرب الشديد ، وهو التعبير (آبا) الذى يماثل

قولنا فى المصرية الدارجة (بابا) أو كما يقول الطفل الانجليزى أو الأمريكى « Daddy » . وهناك فرق بين أن تنادى شخصاً وقوراً كبيراً فى السن قائلاً « يا أبى » أو « يا والدى » وبين أن ترتمى فى حضن أبيك الفعلى وتقول له « يا بابا » .

لذلك فقد كان من انتقادات اليهود للمسيح أنه « قال أيضاً إن الله أبوه معادلاً نفسه بالله » (يو ٥ : ١٨) لأن يسوع كان يتحدث عن الله كمن يعيش معه فى نفس البيت !!

هذا من جانب ...

ومن جانب آخر كان احساس الرب يسوع بالآب احساساً دائماً . ففى أول ظهور له فى صباه فى الهيكل نسمعه يعلن أنه ينبغى أن يكون فيما لأبيه (لو ٢ : ٤٩) وفى اللحظات الأخيرة من حياته وهو على الصليب نسمعه يستودع روحه فى يد أبيه (لو ٢٣ : ٤٦) وكما شهد الآب عن بنوة الابن له فى مستهل خدمته عند المعمودية قائلاً : « أنت ابنى الحبيب الذى به سررت » (مر ١ : ١١) كذلك شهد نفس الشهادة فى أخريات خدمته عند التجلى (مر ٩ : ٧) وبين هذه البداية والنهاية يستمر هذا الشعور بالأبوّة والبنوّة فيقول المسيح : « أنا والآب واحد » (يو ١٠ : ٣٠) . هذه العلاقة الوثيقة ، من معرفة كاملة متبادلة بين الآب والابن ، ومحبة وثقة كاملتين ، تعتبر شيئاً فريداً من نوعه . فاننا

نقرأ نصوصاً عميقة رائعة تصف هذه العلاقة مثل : « الآب يحب الابن وقد دفع كل شيء فى يده » (يو ٣ : ٣٥) ، « الآب يحب الابن ويريه جميع ما هو يعمله) (يو ٥ : ٢٠) ، « كل شيء قد دُفع إلىَّ من أبى وليس أحد يعرف الابن إلا الآب ، ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له » (مت ١١ : ٢٧) وقد أرسل الآب ابنه إلى العالم وأعطاه كل السلطان لاتمام رسالته ، وجميع المؤمنين هم عطية الآب للابن « كل ما يعطينى الآب فإلىَّ يقبل ... لا يقدر أحد أن يُقْبل إلىَّ إن لم يجتذبه الآب الذى أرسلنى » (يو ٦ : ٣٧ ، ٤٤) . ونحن نستطيع عن طريق الابن أن نعرف الآب « من رآنى فقد رأى الآب » (يو ١٤ : ٩) ، وليست هذه الرؤية انعكاساً للآب فى الابن كما يتصور البعض ، ولكنها اختراق إلى شخصية الآب من خلال المسيح « ألست تؤمن أنى أنا فى الآب والآب فىَّ . الكلام الذى أكلمكم به لست أتكلم به من نفسى ، لكن الآب الحالّ فىَّ هو يعمل الأعمال . صدقونى أنى فى الآب والآب فىَّ » (يو ١٤ : ١٠ ، ١١) .

لذلك فمن يبغض الابن يبغض الآب أيضاً (يو ١٥ : ٢٣) « ومن لا يكرم الابن لا يكرم الآب » ... (يو ٥ : ٢٣) .

فى كل هذه الأحاديث نرى أن يسوع كان يبين ان علاقته بالآب علاقة فريدة متميزة تختلف عن علاقة المؤمنين بالآب .

فما كان بالنسبة للمسيح مُحقَّقاً وطبيعياً من حيث وحدانيته مع الآب ، لا يمكن أن يكون كذلك عند البشر ، بل هم يسعون نحو الوصول إلى اتحادهم مع الله شيئاً فشيئاً ، وهذا السعي يكون عن طريق الابن نفسه ، فهو الطريق والحق والحياة ، ولا يأتى أحد إلى الآب ، أى لا يصل إلى علاقة مشابهة مع الآب إلا عن طريقه (يو ١٤ : ٦) .

لذلك يوصف السيد المسيح وحده – بحق – بأنه ابن الله الوحيد (يو ٣ : ١٦) وقد كان معاصروه على حق عندما قالوا إنه « جعل نفسه معادلاً لله » (يو ٥ : ١٨) .

[٢] أبوّة الله للمؤمنين :

والاتجاه الثانى الذى تتجه نحوه أبوّة الله هو جماعة المؤمنين بالمسيح . فإنه من خلال الإيمان بشخص المسيح (الابن) وقبول عمله الخلاصى ، يمكن أن يختبر المؤمنون الله ويعرفوه كأب ، لأنه بين محبته للبشر . « وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أى المؤمنون باسمه » . (يو ١ : ١٢) – هذا هو الميلاد من الله الذى شرحه إنجيل يوحنا بقوله « الذين وُلِدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله » (يو ١ : ١٣) أى أن الميلاد روحى . ولهذا يخاطب بولس أهل

غلاطية قائلاً : « لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع » (غل ٣ : ٢٦) ونتيجة لذلك فهم ينقادون بروح الله (رو ٨ : ١٤) وقد كان السيد المسيح يخاطب تلاميذه ويشير إلى الله بالقول « أبوكم السماوى » ، وأيضاً بالنسبة للفرد كان يقول « أبوك الذى فى السماء » .

ومن واقع الشعور بهذه الأبوّة يكون سلوك المؤمنين ، فيكون عمل ارادة هذا الأب السماوى هو هدف حياتهم ، وصلاتهم الحقيقية لا تكون بمجرد كثرة الكلام ، بل بالسير فى طريق ارادة الله ، « ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السموات » (مت ٧ : ٢١) والتمثل بالله كأولاد أحباء هو هدف المؤمنين ، وعلى هذا الأساس عليهم أن يحبوا ويصفحوا ويباركوا ويعطوا دون تمييز ليكونوا كاملين كما أن أباهم الذى فى السموات هو كامل (مت ٥ : ٤٥ ، ٤٨) .

وعلاقة المؤمنين بالمسيح من أهدافها أن تكون لهم معرفة بالله كأب لهم ، وبالمسيح باعتباره الأخ البكر ، وبالمؤمنين كأخوة فى أسرة الله . لذلك قال المسيح : « الذى عنده وصاياى ويحفظها فهو الذى يحبنى ، والذى يحبنى يحبه أبى وأنا أحبه وأظهر له ذاتى » (يو ١٤ : ٢١) – وفى صلاته الشفاعية طلب ليكون

الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ... أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمّلين إلى واحد » (يو ١٧ : ٢١ ، ٢٣) « لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكراً بين اخوة كثيرين » (رو ٨ : ٢٩) .

[٣] أبوّة الله العامة للبشر :

على أننا ونحن نتأمل فى أبوة الله للمؤمنين لا ينبغى أن نتجاهل حقيقة هامة وهى أن أبوة الله تتجه أيضاً نحو جميع البشر .

وكثيرون من المسيحيين مجرَّبون أن يهملوا هذا الاتجاه ، ويحتفظوا بصورة منقولة من الفكر اليهودى الضيّق فى احدى فترات العهد القديم حينما كانوا يعتبرون الله وبركاته قاصرة عليهم كشعب الله المختار . وقد يشجعهم فى ذلك ما يقرأونه من بعض النصوص الكتابية عن (التبنّى) مثل ما ورد فى رومية ٨ : ١٥ « إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف بل أخذتم روح التبنّى » ، وفى غلاطية ٤ إذ يقول إن الله أرسل ابنه ليفتدى الذين تحت الناموس « لننال التبنّى » عندما يقرأون مثل هذه الآيات يتصورون أن عامة البشر ليسوا أبناء الله ، لأن التعبير « التبنّى » بمفهومه الحديث معناه اتخاذ من ليس فى الأصل ابناً ، ليكون ابناً . وعلى هذا الأساس ينكر البعض البنّوة الطبيعية التى تربط بين جميع البشر

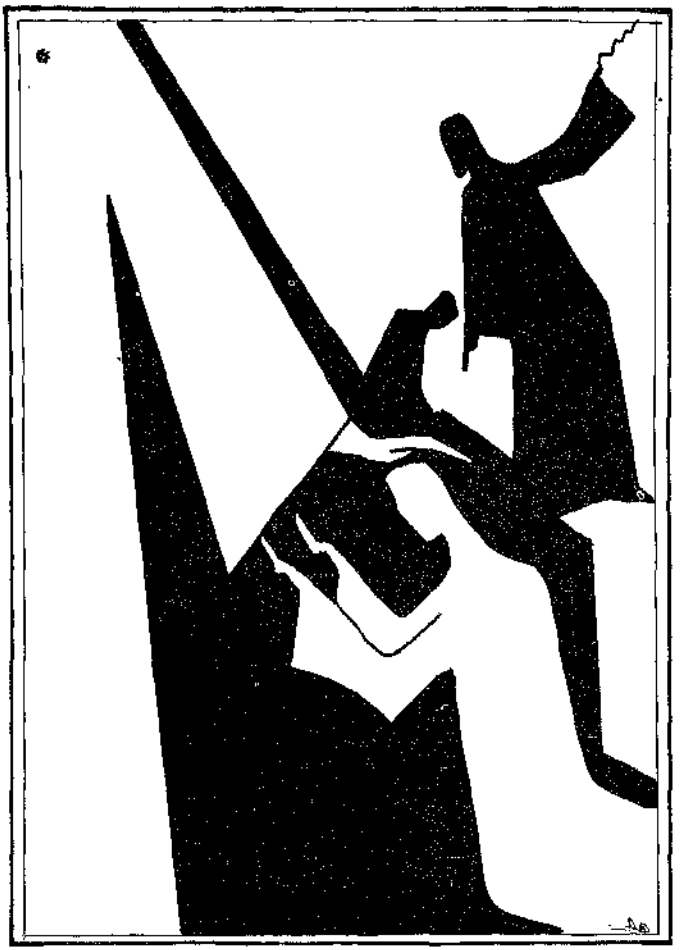

وبين الله باعتباره أباً للجميع .

إلا أننا عندما نتمعّن فى نصوص العهد الجديد ، سواءً فى أقوال السيد المسيح أو الرسل ، يتبين لنا أن كلَّ إنسان عندما يولد يكون ابناً لله – بالمعنى العام – ووارثاً للملكوت . لقد قال المسيح « دعوا الأولاد يأتون إلىَّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السمٰوات » (لوقا ١٨ : ١٦) . ويتضح لنا كذلك من أقوال السيد المسيح أنه فى طفولة الإنسان يكون جميع البشر موضوع محبة الله الأبوية وعنايته لأن مشيئة الله ألا يهلك أحد منهم . « انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار لأنى أقول لكم إن ملائكتهم فى السمٰوات كل حين ينظرون وجه أبى الذى فى السمٰوات ... هكذا ليست مشيئة أمام أبيكم الذى فى السمٰوات أن يهلك أحد هؤلاء الصغار » (مت ١٨ : ١٠ ، ١٤) .

صحيح أن البشر قد يضلّون ، ولا يتبيّنون حقيقة علاقتهم بالله ، ويبتعدون عنه ، ويصيرون أشراراً وظالمين ... ومع ذلك فإن الله ينعم عليهم ببركاته « فانه منعم على غير الشاكرين والأشرار » (لو ٦ : ٣٥) ويشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين (مت ٥ : ٤٥) .

وقد يكون الابن الضال غير مستحق أن يدعى ابناً لأبيه ، ولكن الأب يظل دائماً أباً ومنتظراً عودة ابنه الضال .

وقد يتمادى بعض الناس فى الشرور حتى إن حياتهم لا تظهر أية لمحة من أبوّة الله لهم ، وما يظهرونه من شرور يبيّن أن الشيطان قد اقتنصهم وصاروا أبناء إبليس ، وتنقطع علاقتهم البنوية بالأب ، وينطبق عليهم ما قاله الرب يسوع لبعض اليهود : « لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني ... أنتم من أب هو إبليس ، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا » (يو ٨ : ٤٠ ، ٤٢) ولكن طبيعة الأب لا تتغير لأنه كامل (مت ٥ : ٤٨) .

إن الله يتطلع إلى جميع البشر باعتبارهم أبناء له ، لأنهم خليقته ويعتمدون عليه فى كل شيء أو كما عبرَّ بولس فى حديثه إلى أهل أثينا بقوله : « إذ هو يعطى الجميع حياةً ونَفَساً وكلَّ شيء ... لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد . كما قال بعض شعرائكم أيضاً لأننا أيضاً ذريّته » (أع ١٧) .

فالإنسان باعتباره كائناً عاقلاً حرَّ الارادة مخلوقاً على صورة الله ، يحمل امكانية البنوّة لله ، على أنه إذا ظهرت له هذه الحقيقة وتقبّل محبة الله الظاهرة فى يسوع المسيح ، فإن إدراكه لهذه الحقيقة واقتناعه القلبى بها يوقظ فى نفسه الاحساس الكامن الخامد بابوّة الله له ، وإذ تنسكب محبة الله فى قلبه بالروح القدس المعطى له يهتف سعيداً بهذه البنوّة « لأن محبة الله قد انسكبت فى قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا ... ولأنه ونحن بعد خطاة ، مات المسيح من أجلنا » (رو ٥ : ٥ ، ٨) .

ثانيـــاً
الله المـــلـك

من واجبنا أن نوضح للقارىء فى العصر الحديث أن استخدام صفة « المُلْك » ونسبتها إلى الله تعالى مرتبطة إلى حد كبير بالمفهوم الذى كان سائداً فى الزمان والمكان الذى كتبت فيه أسفار الكتاب المقدس .

فنحن نحيا الآن فى عصر قد تبدّلت فيه المفاهيم وتغيّرت إلى حد كبير ؛ وقد قلّت فيه المَلكيّات فى دول العالم ، وبعضها تغيّر إلى نظم أخرى كالجمهوريات ، والاتحادات ، وغير ذلك . وحتى البلاد التى ما زال النظام الملكى موجوداً فيها ، فإن هناك أساليب دستورية للحكم تحدّ من سلطة الملوك ، وأصبح المألوف فى بعض النظم الملكية العريقة كانجلترا مثلاً ، التى كان الملوك قديماً يستندون فى سلطانهم إلى ما كان يسمى « حق التفويض الإلهى للملوك » (The Divine Right of Kings) . أن الملك –

فى الوقت الحاضر – يملك ولا يحكم ؛ أى أن له الاسم واللقب والشكل دون السلطة .

لكن نسبة صفة المُلْك إلى الله تعالى ، تجىء من المفهوم القديم فى الشرق حيث كان الملك يملك فعلاً ، أى يملك ويقتنى ويستحوز على ما يملكه ، وله سلطان مطلق ... وفى التاريخ نقرأ عن سلطان الملوك بموجب ما كانوا يعتقدون به من تفويض إلهى ، فكان الملك يتصرف دون أن يكون هناك شخص أو هيئة تحاسبه ... وبذلك شُبّهَ سلطانه بسلطان الله ، أو نُسِب سلطانه إلى حق مَنَحَهُ له الله . كانت أحكام الملك مبنية على مجرد ارادته .

وفى اللغة العربية كما فى العبرية اشتق لفظ « ملك » من الامتلاك والاقتناء ؛ أما فى اللغة الأشورية والأرامية فمن المعتقد أن اللفظ المستخدم مشتق من فعل معناه « يشير » ، باعتبار أن أساس سلطان الملك أن لديه المشورة الصالحة فيكون أفضل الأشخاص فى تدبير أمور المملكة .

عندما يوصف الله تعالى فى الكتاب المقدس بأنه « ملك » فإن هذا الوصف يتضمن المجد والكرامة والعظمة والسلطان والهيبة وحرية التصرف المطلقة فى رعيته ، فى المنح والمنع والثواب والعقاب . الخ ..

والنظرة إلى الله كملك ليست قاصرة على العهد الجديد ، ولكنها تطورت بصورة واضحة فى العهد الجديد عنها فى العهد القديم كما سنرى ، لكن الفكرة موجودة في العهد القديم ، ونحن نقرأ فى سفر المزامير بنوع خاص ما يؤكد أن الله ملك عظيم مثل :

« لأن الرب إله عظيم ملك كبير على كل الآلهة .
الذى بيده مقاصير الأرض وخزائن الجبال له .
الذى له البحر ... ويداه سبكتا اليابسة »
(مز ٩٥)

« قولوا بين الأمم الرب قد ملك .
أيضاً تثبتت المسكونة فلا تتزعزع .
يدين الشعوب بالاستقامة »
(مز ٩٦ : ١٠)

« الرب قد ملك فلتبتهج الأرض
ولتفرح الجزائر الكثيرة ...
العدل والحق قاعدة كرسيّه ...
ذابت الجبال مثل الشمع قدام الرب
قدام سيد الأرض كلها »
(مز ٩٧)

[١] ملكوت الله فى العهد القديم :

كان لليهود فهمٌ خاص عن ملكوت الله ، فبالاضافة إلى نِسْبَة صفات المُلْك بما تتضمنه من سلطان ومجد إلى الله تعالى ، فقد كانوا فى حياتهم الاجتماعية والسياسية يعتبرون أن بينهم وبين الله علاقةٌ خاصة ، باعتباره ملكاً عليهم . وقد بدأت حياة شعب إسرائيل بعد استقرارهم فى أرض كنعان بحكم ثيوقراطى (حكم الله) ، وكان الشعب يعتبر أن الله نفسه هو الملك ، وكان الله يقيم لهم « قضاة » يحكمون بينهم بحكم الله ، وبتكليف من الله . وآخر هؤلاء القضاة كان صموئيل النبى .

ولما شاخ صموئيل جعل ابنيه قاضيين لإسرائيل ، ولم يسلك ابناه فى طريقه بل مالا وراء المكسب وأخذا الرشوة وعوّجا القضاء ، فتذمر الشعب ، وغار من باقى الشعوب ، وطلب من صموئيل النبى أن يجعل لهم ملكاً كسائر الشعوب . ولما استاء صموئيل النبى من هذه الرغبة ، طلب منه الله أن يستجيب للشعب وقال له : « اسمع لصوت الشعب فى كل ما يقولون لك ، لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياى رفضوا حتى لا أملك عليهم » (١ صم ٨ : ٦ ، ٧) ، وطلب الله من صموئيل أن ينبّه الشعب إلى أن الملك الذى يطلبونه سوف يستغّل الشعب ويسخرّ أولادهم لمصالحه وسيكون شديد البأس عليهم . ولكن الشعب كان يشتاق

أن يكون له ملك يخرج أمامهم فى الحرب كسائر الشعوب ، وأصرَّ على طلبه ، فاختار صموئيل شاول بن قيس ومسحه ملكاً عليهم ، فكان أول ملك للشعب .

إلا أنه حتى بعد أن صار للشعب ملوك ودولة ، كانوا يعتبرون أن الله هو الملك الحقيقى ، وأن هؤلاء الملوك يستمدون سلطتهم من الله ، وأن علاقة الله بشعب إسرائيل كملك لا تتضمن رسالتهم الروحية فحسب ، بل نجاحهم وتفوقهم السياسى أيضاً .

[٢] الرب يسوع المسيح وملكوت الله :

إلا أننا عندما نتقدم إلى العهد الجديد ، نرى أن الاعتقاد بملكوت الله اتخذ طريقاً مختلفاً ، ففى العهد الجديد لم تكن لشعب إسرائيل مملكة ، بل كانوا يخضعون لسلطان الدولة الرومانية وولاتها ، ولكن الاعتقاد بملكوت الله صار مرتبطاً بالاعتقاد بالله كأب – فأبوة الله تصف المجال الفردىّ فى العلاقات ، بينما ملكوت الله يصف الجانب الجماعى والاجتماعى فى هذه العلاقات ، أو حكم الملك الأب .

ويستخدم متى البشير التعبير « ملكوت السمٰوات » كتعبير مرادف لملكوت الله . وعندما جاء الرب يسوع المسيح متجسداً على الأرض قيل إنه جاء « يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول قد

كمل الزمان واقترب ملكوت الله ، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل » (مر ١ : ١٤ ، ١٥)(*) .

بل أن الرب يسوع أعلن أن ملكوت الله قد أقبل ، وبمجيئه أعطى للملكوت صبغة روحية دون ارتباطه بنظام سياسى أو اجتماعى معيّن . ومن تعاليم السيد المسيح نلاحظ أن بركات الملكوت أى بركات مُلْك الله اخلاقية وروحية فى طبيعتها ، كما أن شروط دخول هذا الملكوت ، أو الانضمام تحت راية الله كملك ، روحية وأخلاقية أيضاً كالتواضع والجوع والعطش إلى البر ، ومحبة الرحمة والسلام والنقاوة . ومما قاله السيد :

« طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السمٰوات » (مت ٥ : ٣) « إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السمٰوات » (مت ١٨ : ٣ ، انظر أيضاً مت ٢٠ : ٢٦ – ٢٨ ؛ ٢٥ : ٣٤ ؛ يو ٣ : ٣) .

إن هذا الملكوت اختبارٌ روحىّ فى الشخصية داخل الإنسان « لا يأتى ملكوت الله بمراقبة . ولا يقولون هوذا ههنا أو هوذا

(*) لن نتوسع فى موضوع ملكوت الله لأنه متشعب ومتسع ، ومن يريد الاستزادة فيه يرجع إلى كتاب « ملكوت الله » للدكتور القس فهيم عزيز .

هناك . لأن ها ملكوت الله داخلكم » (لو ١٧ : ٢٠ ، ٢١) . وهو شيء يختلف عن الماديات التي تحكم تفكير ممالك الأرض « لأن ليس ملكوتُ الله أكلاً وشرباً ، بل هو بر وسلام وفرح فى الروح القدس » (رو ١٤ : ١٧) .

وقد أوضح السيد المسيح بجلاء تام أن ملك الله لا يرتبط بشعب معيّن ، ولا بمكان معيّن ، بل أن كثيرين ممن يظنون فى أنفسهم أنهم قد امتلكوا الله واختصّوا به ، سوف يكتشفون أنه ليس لهم نصيب فيه . فقد قال يسوع : « وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم واسحق ويعقوب فى ملكوت السمٰوات . وأما بنو الملكوت فيُطرحون إلى الظلمة الخارجية » (مت ٨ : ١١ ، ١٢) .

[٣] مَنّ هـو المَلِك ؟

من الطبيعى أن يكون الله هو الملك فى هذا الملكوت ، وهذا يتفق مع التعبير « ملكوت الله » الذى نجده متكرراً فى إنجيلى مرقس ولوقا . كما أننا نجد فى أحاديث السيد المسيح ارتباطاً بين أبوّة الله وملكه ، كما جاء فى لوقا ١٢ : ٣٢ « لا تخف أيها القطيع الصغير لأن أباكم قد سرَّ أن يعطيكم الملكوت » فالله الآب هو الملك وعلى هذا الأساس فإن مشيئة الله هى قانون الملكوت ،

وأخلاقيات الله أو صفاته هى الصورة المثالية للملكوت ، ونحن إذا اعتبرنا أنفسنا أبناء الملكوت علينا أن نتحلى بصفات رب الملكوت .

إلا أننا نجد فى بعض المواضع فى العهد الجديد أن السيد المسيح ينسب إلى نفسه صفة المُلْك ، فموافقته على اعتراف بطرس بأنه المسيح (مت ١٦ : ١٦) تتضمن أنه ملك ؛ وفى مرة أخرى نسمعه يتحدث عن ابن الإنسان « آتيا فى ملكوت » (مت ١٦ : ٢٨) ، وحديثه عن نفسه بأنه سيكون فى موقع الحكم والقضاء يدل على أنه ينسب لنفسه الملك (مت ٢٥ : ٣٤ ، لو ١٩ : ٣٨) وهو يقبل أمام بيلاطس حقيقة كونه ملكاً وإن كان يوضح أن مملكته ليست كما يظن بيلاطس ، بل هى ليست من هذا العالم (يو ١٨ : ٣٦) .

فهل يا ترى يوجد نوعان من الملكوت ، واحد للآب ، وواحد للابن ؟

الحقيقة أنه مُلْكٌ واحد ، وسلطان واحد ، إذ أنه لا يمكن أن تنقسم مملكة على ذاتها ، وإلا فانها تخرب . والحل الوحيد لهذا الاختلاف الظاهرى فى نسبة الملك ، نجده فى مزمور ١١٠ « قال الرب لربى اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك » (مز ١١٠ : ١) . وقد اقتبس الرب يسوع هذا النص نفسه وهو

يحاور الفريسيين (متى ٢٢ : ٤٤) .

فإن الله الآب الملك ، أعطى السلطان للابن حتى يخضع أعداءه تحت قدميه . فالابن هو الملك فى ملكوت أبيه ، وهو ملك الملوك ورب الأرباب . ويقول بولس الرسول فى رسالة كورنثوس الأولى « لأنه يجب أن يملك حتى يضع جميع الأعداء تحت قدميه » (١ كو ١٥ : ٢٥) . وهذا ينطبق على قول السيد المسيح إنه قد دُفع إليه كل سلطان فى السماء وعلى الأرض (مت ٢٨ : ١٨) . وفى نفس الوقت فإن السيد المسيح قال « أنا والآب واحد » (يو ١٠ : ٣٠) .

لقد أراد يسوع أن ينقل إلى سامعيه صورة الآب الملك ، وملكوته الروحى بالمحبة والبر ، وسلطانه على كل قوى الطبيعة ليحقق مقاصد نعمته ، ودعا تلاميذه أن يطلبوا أن يأتى ملكوت الآب « ليأت ملكوتك » (مت ٦ : ٩ ، ١٠) وأن يدخلوا هذا الملكوت بعمل مشيئة الآب (مت ٧ : ٢١) وحيث أن هذا الملكوت روحى ويختلف عن مفاهيم الملك الزمنى المعروفة عند الناس ، فإن يسوع المسيح ، وهو الابن الوحيد الذى خبرٌ عن الآب ، أعلن للناس أبوّة الله وملكه ، فأصبح الملكوت بوجوده وكرازته حاضراً فى شخصه ، أو بتعبير الكتاب المقدس « ملكوت ابن محبته » (كو ١ : ١٣) وكان يسوع الذى يحمل هذه المحبة

فى قلبه ويعلنها « يطوف كل الجليل يعلم فى مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفى كل ضعف فى الشعب » (مت ٤ : ٢٣) . وكانت هذه الخدمة الروحية والجسدية تعبيراً عن أن الله قد تدخل فى حياة البشر فى شخص المسيح ، لذلك قال الرب يسوع لليهود بعد شفائه للمجنون الأعمى والأخرس : « ولكن إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين ، فقد أقبل عليكم ملكوت الله » (مت ١٢ : ٢٨) . وعلى هذا الأساس دعا الناس إليه ليطيعوه ويتعلموا منه ويخضعوا له ويحملوا نيره عليهم لأن فى هذا راحةً لنفوسهم (مت ١١ : ٢٧ – ٣٠) ، فهو باعتباره الابن يحمل رسالة الملكوت ، ويحققه عملياً فى حياة الناس الذين يطيعونه .

[٤] الملك الأب :

والخلاصة أننا نستطيع أن نلاحظ تطور فكرة مُلك الله فى العهد الجديد عنها فى العهد القديم من الارتباط بشعب معين إلى المُلك العام ، ومن الارتباط بنظام سياسى واجتماعى إلى المُلك الروحى ، الذى هو حقيقة داخل النفس ، واختبار روحى أخلاقى ؛ ومن النظرة الخارجية التى ترتبط بالمجد والبهاء والسلطان ، إلى خشوع النفس أمام خالقها وفاديها وحافظها ؛ ومن الخوف الشبيه بخوف العبيد أمام السلطان الرهيب ، إلى تقوى البنين وطاعتهم وحبهم ؛ ومن الخضوع بما يشبه الإرغام ، إلى الفكر المستأسر بالحب

لطاعة المسيح .

فنحن فى العهد الجديد أمام الملك الأب ، بل أمام الملك العريس الذى افتدى عروسه لتكون معه فى أبهى حلة ، لتهتف مع الجماهير الهاتفة فى رؤيا يوحنا :

« هللويا
فانه قد ملك الرب الإله القادر على كل شىء
لنفرح ونتهلل ونعطه المجد لأن عرس
الحمل قد جاء وامرأته هيأت نفسها
وأعطيت أن تلبس بزًّا نقياً بهياً
لأن البزَّ هو تبررات القديسين »
(رؤ ١٩ : ٦ – ٨)

ثالثـــاً
الله واحد فى ثلاثة أقانيم

يؤمن المسيحيون بإله واحد ، لا شريك له . وفى كل قوانين الإيمان المسيحية منذ القرن الأول الميلادى حتى اليوم ، نرى العبارة « بالحقيقة نؤمن بإله واحد » أو « نؤمن بالله » . وطبيعى أنه لا يمكن أن يوجد سوى إله واحد ، لأن لو وُجِد شريكٌ لله تعالى فى الألوهية ، لما كان الله بالحق قادراً على كل شىء ، وضابطاً للكل فى هذا الكون .

لكننا فى نفس الوقت لا يمكن أن نتجاهل الصيغة المسيحية التى تحمل معنى الثلاثية والوحدة فى آن واحد . فقد أمر المسيح تلاميذه أن يتلمذوا جميع الأمم ، وان يعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس ؛ باعتبار أن الثلاثة واحد لأنه قال « باسم » وليس « بأسماء » .

وفى كل فرائض المسيحية نرى فكرة التثليث والوحدة معاً .

نراها فى البركة الرسولية « نعمة ربنا يسوع المسيح ، ومحبة الله الآب ، وشركة الروح القدس » ، ونراها فى الصلوات إذ نصلى للآب ، فى الروح ، باسم الابن أى باسم المسيح .

كثيرون يخطئون إذ يتصورون أنهم ثلاثة آلهة ، ويرجع جانب من هذا الخطأ إلى نظرتهم إلى الأبوّة والبنوّة بمدلول شبيه بما يفهمونه من العلاقات البشرية ، ولقد وضحنا من قبل أن هذه الأبوّة والبنوّة علاقة أزلية تختلف تماماً عن المفاهيم البشرية ، وإنما تستخدم هذه الألفاظ القاصرة لتقريب فكرتها إلى البشر .

والبعض يقولون إنه لأمرٌ محيِّر أن واحداً يساوى ثلاثة ، وثلاثة تساوى واحداً ، ولكنهم يقبلون ذلك بالإيمان باعتبار أن الله فى ذاته وكمالاته لا يُدرك ، ويفوق الادراك ، لكنه لا يتناقض معه .

لكن قبول الحقيقة بالإيمان لا يمنع أن نفكر وندرس ، لندرك قدر استطاعتنا معنى الوحدة فى الذات الإلهية رغم وجود ثلاثة أقانيم .

ويعتقد كثيرون أن تعليم التثليث لم يبدأ بالعهد الجديد ، لكنه كان مشاراً إليه فى العهد القديم بكيفية لم يستطع الناس أن يميزوها ، ولكننا الآن نستطيع أن نميّزها فى نور ما أعلن لنا فى العهد الجديد .

فاللفظ العبرى المترجم « الله » هو فى العبرية « إلوهيم » وهو صيغة الجمع من « إلوه » بمعنى إله . وكأنما الترجمة الحرفية لإلوهيم هي الآلهة . وقد تكرر هذا اللفظ ٢٥٥٥ مرة فى الكتاب المقدس منها ٣٢ مرة فى سفر التكوين . وقد اعتبر بعض اللاهوتيين المسيحيين استخدام هذا اللفظ (إلوهيم) بصيغة الجمع اشارة قديمة إلى حقيقة وجود الأقانيم الثلاثة فى الذات الإلهية الواحدة ، بدليل أنه فى الاستخدام العبرى يستخدم اللفظ بصيغة الجمع ، بينما الفعل المصاحب له يكتب بصيغة المفرد . كالقول « إلوهيم قال » أو « إلوهيم صنع » .

كذلك فإن الله عند حديثه عن الخلق ، تحدث عن ذاته تعالى بصيغة الجمع فقال لله « نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا » (تك ١ : ٢٦) . وهذه الصيغة تدل على أن الذات الإلهية متعددة الأقانيم ، وان كان البعض قد عللوا استخدامها بأنها للتعظيم ، لكن التاريخ القديم يؤكد أن استخدام المفرد لصيغة الجمع عند الحديث عن نفسه للتعظيم لم يكن معروفاً فى العصور القديمة ولم يوجد نظيره سواء عند ملوك بابل أو أشور أو مصر القديمة ؛ ولو كانت هذه العادة موجودة ، للزم أن تصاحب كل الضمائر التى تصف الله تعالى ، فى التوراة ، ولكن هذا غير موجود .

ويذكر اللاهوتيون أن وجود هذا الأسلوب فى الحديث عن الله

منذ القديم يدل على أن هناك حواراً وتعاملاً غنياً فى شخصية الإله الواحد ، تقتضى تفاعل وتعامل صفاته وعدم تعطلها قبل خلق العالم . فاذا كان من صفات الله تعالى الأزلية ، صفات تقتضى مثل هذا الحوار مثل الكلام والسمع ، والبصر والمحبة ، فلا يعقل أن تكون هذه الصفات معطلة قبل أن يخلق الله العالم والملائكة ... فمع من يتكلم الله ، ويتشاور ، ويحب ، ويسمع !! إذاً فلا بد أن يكون هناك فى ذات الله تعالى هذا التفاعل والكلام والمحبة والسمع والبصر ، وهذا لا يتحقق إلا بوجود أقانيم فى ذات الإله الواحد .

وبادىء ذى بدء يجب أن نؤكد أن عقيدة التثليث والوحدانية معاً هى خلاصة لكل التعاليم المسيحية الجوهرية ، لكن مجرد ترديد الصيغة «الآب والابن والروح القدس» ربما يخفى معناها الحقيقى أو يجعله غامضاً مبهماً ما لم نحاول أن نفهم بعمق ما تقرره ، وهذا ما نحاوله الآن .

وسوف نقترب إلى دراسة هذا الموضوع من زاوية تخلو من الجدل ، ولكنها تحاول أن تتلمس ادراكاً لهذه الحقيقة فى ضوء التاريخ والاختبار وبالرغم من عجز اللغة البشرية فى التعبير عن الأمور الإلهية ، ونرجو أن نفعل هذا فى أربع نقاط :

الأولى : محاولة توضيح الصعوبة اللغوية التى تواجه من يتحدث عن الإلهيات .

والثانية : استقراء كيفية اختبار التلاميذ لحقيقة الأقانيم الثلاثة دون صياغة ذلك فى شكل لغوى معين .

والثالثة : معنى الوحدة الغنية أو غير البسيطة .

ثم نختم هذه الدراسة بنموذج من محاولة بولس الرسول أن يشرح العقيدة الإلهية لأهل أثينا الوثنيين ، ذاكراً عمل الأقانيم الثلاثة دون الاشارة إليهم بالاسم .

أولاً : الصعوبة اللغوية :

فى حديثنا عن تجليات الله ، أشرنا إلى الصعوبة الناتجة عن محاولتنا التعبير عن الأمور الروحية والإلهية باللغة البشرية القاصرة ، ثم وجهنا النظر إلى الأخطاء التى يقع فيها الناس عندما يحاولون فهم التعبيرات اللغوية المستخدمة عن الله بنفس الأسلوب الذى يفهمونها به وهم يتحدثون عن المحسوسات مثل يد الله ، وعين الله ، ووجه الله وغير ذلك .

١ – ونريد الآن أن نضيف شيئاً آخر وهو أننا عندما نستخدم

التعبير « ثلاثة أقانيم » أو « الآب والابن والروح القدس » ، فنحن لا ننطق بها بمعزل عن الفهم التاريخى لأولئك الذين عاصروا العصر الأول المسيحى وأحداثه ، بمعنى أننا لا نستطيع أن نفهم مدلول هذه الألفاظ إلا إذا درسنا تاريخ حياة السيد المسيح وتاريخ الكنيسة المسيحية الأولى . ومن يحاول أن يقفز إلى فهم هذه الألفاظ دون دراسة تاريخها والاختبار الذى تحمله ، فهو معرّض لأن يسىء الفهم تماماً .

إن هذه الكلمات تحمل إلينا قصة وتاريخاً ، ومن ورائها أحداث ووقائع تتعلق بشخصية عاشت فعلاً فى التاريخ هى شخصية يسوع المسيح ، الذى عاش فى زمن معيّن ، وفى مكان معيّن ، وكان عجيباً فى حياته من ميلاده إلى موته وصعوده . ولقد وُلِد من أمة معينة لها تاريخ خاص ، وظهرت نتيجة لحياته وموته وقيامته جماعة تضم أناساً من كل الشعوب هى الكنيسة المسيحية .

وقد يتساءل البعض : لماذا لا نكتفى برواية تاريخية عن هذا الشخص ونترك فكرة التثليث الغامضة ؟ والجواب على هذا السؤال هو أنه وراء هذه الشخصية التاريخية توجد يدٌ غير منظورة تعمل فى التاريخ .

وتحاول اللغة أن تعبّر عن هذه الحقيقة بالصور والرموز ...

فاللغة تتحدث عن مواجهة بين عالمين : واحد منظور والآخر غير منظور ؛ وكل ما تستطيع اللغة أن توضحه من هذه الحقيقة هو الجزء المنظور الذى يمكن أن تعبّر عنه بلغة بشرية ، أما الجزء الباقى ، غير المنظور ، فلا بدَّ أن يُشار إليه بالمجاز والرموز .

إننا نستطيع أن نشبّه قصور اللغة برسّام للخرائط يريد أن يمثل ويرسم شكلاً كروياً كالأرض ، ولكنه يريد أن يرسمه على سطح مستو كلوحة مثلاً ... أى أنه يريد أن يرسم شكلاً ذا ثلاثة أبعاد ، على بعدين .

والنتيجة أنه يرسم دائرة ... لكن الدائرة لا تعبّر عن الشكل الكروى ، لذلك قد يرسم دائرة أخرى بجوارها كما يحدث عند رسم خريطة الكرة الأرضية ... وقد يرسم أكثر من دائرة أخرى كل واحدة تشير إلى الكرة الأرضية من زاوية معيّنة فقط .

لكن كل ما يرسمه الرسام يكون صحيحاً جزئياً ، وكل محاولاته إنما ليُقرّب الصورة الحقيقية للكرة إلى عقل من ينظر إلى الرسم .

هكذا اللغة ، إنها تحاول أن تعبّر عن الحقيقة بأفضل ما تستطيع ، لكن الكلمات البشرية لا تستطيع أن تستوعب كل ما تريد أن تعبّر عنه فى حقيقة الثالوث ، وهذا هو سرّ غموض

الفكرة وصعوبة استيعابها .

فمثلاً نحن نتحدث عن الآب والابن والروح القدس كإله واحد فى ثلاثة أقانيم . والناس لا يفهمون معنى كلمة « أقنوم » ويظنون أنها تشير إلى « شخص » . وفى الانجليزية لا توجد هذه الكلمة لكنهم يستخدمون كلمة « Person » التى ترجمتها « شخص » وهذا مع الأسف لا يعبّر عن المعنى الصحيح ، ويزيد الالتباس الفكرى إذ يتصور الدارس أن الله تعالى ثلاثة أشخاص .

لكن عقيدة التثليث بدأ التعبير عنها بالألفاظ من خلال لغة أخرى هى اليونانية واللاتينية ، وفى جوّ ثقافى معين ، وتراث يختلف عن تراثنا الثقافى . إن لغة قوانين الإيمان القديمة استخدمت كلمة (Persona) اللاتينية للدلالة على أقانيم اللاهوت ، والكلمة تعنى « القناع » الذى يلبسه الممثل ، وأحياناً تعنى الوظيفة أو الدور الذى يقوم به موظف عام . كانت هذه الكلمة أقرب ما وجدوه للتعبير عن حقيقة يصعب التعبير عنها باللغة . وقد استخدم اللاهوتيون العرب كلمة « أقنوم » وهى كلمة سريانية الأصل تعبر عن التميّز ، وذلك لبيان أن فى الذات الإلهية (أدوار) متميّزة مع اشتراكهم فى الجوهر الواحد وهو الذات الإلهية ، وقد استخدموا هذه الكلمة واحتفظوا بها كما هى فى أصلها السريانى لتكون تعبيراً فريداً يختلف عن أى كلمة عربية

يستخدمونها ، حذراً من استخدام كلمة « شخص » التى استعملها الأوربيون وصارت مصدراً لالتباس الفهم .

إننا لا نستطيع أن نفكر فى أسلوب النشاط الإلهى أو الدور الإلهى فى العالم بنفس الكيفية التى نفكر فيها فى أسلوب الإنسان أو دور الإنسان . لأنه لا يمكننا أن نتصور الله حسب المقاييس البشرية على الاطلاق .

٢ – جانب آخر هو أن الرقم ثلاثة يستعمل هنا رمزياً وليس رياضياً أو حسابياً .

ان استخدام الرقم بالمعنى الرياضى الحسابى يشير إلى ثلاثة أشياء أو ثلاثة أشخاص منفصل أحدهم عن الآخر ، وكل شخص له ذات مستقلة حتى إن كانت متشابهة .

فلو تحدثنا عن ثلاث زهرات سواء كانت مختلفة أو متشابهة فى النوع أو اللون ، فنحن نقصد ثلاثة أشياء مختلفة ، كل زهرة تحتل مكاناً معيناً ، ويمكن أن تتعامل مع الزمن مستقلة عن الأخرى ... فزهرة نبتت قبل الأخرى أو بعدها أو فى نفس الوقت ، وواحدة هنا والثانية هناك ؛ وفى هذا نرى عاملى الزمان والمكان يحددانهما .

وحتى فى الأفكار المجردة عن المادة يمكن أن أقول إن هناك

ثلاثة أفكار فى ذهنى ، ويمكننى أن أرتب فكرة قبل الأخرى منطقياً ...

هذا هو التفكير الرياضى فى الأرقام ... لكننا لا نفكر فى الثلاثة الأقانيم هكذا ، بل نرى ثلاثة أنواع أبدية من الوجود والنشاط موجودين معاً فى وقت واحد ، أى متلازمين ومتزامنين ومتلاقيين لذلك نقول إن استخدام العدد (ثلاثة) ليس استخداماً حسابياً أو رياضياً بل رمزياً ... يشير إلى حقيقة تفوق العقل المحدود بالزمان والمكان لكنها لا تناقضه . وإذا كان الله تعالى كما هو راسخ فى عقيدة جميع المؤمنين به ، يفوق العقل والإدراك ، فكيف نرفض وصفاً له يفوق الادراك أو تعبيراً عنه يفوق الادراك كالتثليث مع الوحدة ؟!

ثانياً : العقيدة والاختبار :

كيف جاءت فكرة التثليث هذه ؟ لقد تعوّد اللاهوتيون أن يقولوا إن فكرة التثليث لكونها بعيدة عن ادراك العقل ، فلا بد أنها اعلان إلهى فوق قدرة البشر أن يبتدعوه أو يصيغوه ... وهذا رأى سليم ...

لكن كيف وصل هذا الاعلان إلى الناس ؟

دعونا لا نتصور أن مجمعاً من أقطاب اللاهوتيين اجتمع على مائدة البحث والدرس والمناقشة ، وأخيراً استطاع أن يضع عقيدة التثليث ...

كلا ... إن الأمر لم يحدث هكذا ، إنما عقيدة التثليث جاءت أولاً من اختبار المسيحيين الأوائل لاقتراب الله ووجود الله . وبعد هذا الاختبار حاول اللاهوتيون والمسيحيون أن يعبّروا بصيغة لاهوتية عما سبق لهم أن اختبروه فى واقع حياتهم .

ومعنى هذا أن التثليث عقيدة وليدة الاختبار ، أو أن اختبار المؤمنين للإله المثلث الأقانيم جاء وتأكد قبل وضع الصيغة العقائدية عن التثليث .

فما هو هذا الاختبار ؟

١ – لنذكر أن التلاميذ الأُوَل ، وكل كتّاب العهد الجديد – عدا لوقا – كانوا جميعاً من اليهود . واليهودى يعتقد اعتقاداً راسخاً بوحدانية الله . هذا ما لا شك فيه . وأكثر ما يعتز به اليهودى هو قول الله : « اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا ربٌ واحد » (تث ٦ : ٤) . والوصية الأولى من الوصايا العشر « لا يكن لك آلهة أخرى أمامى » (خر ٢٠ : ٣) .

ولا شك فى أن يسوع نفسه وتلاميذه كانوا يعتقدون بهذا الاعتقاد ؛ وأن يسوع لم يقدّم نفسه للناس على أنه إله آخر ، ولم تخطر هذه الفكرة على بال تلاميذه .

ورغم ذلك فقد كانت هناك أسئلة محيّرة تجول فى خواطر التلاميذ عن يسوع المسيح . كانت هناك أسئلة كثيرة مثل :

أى نوع من البشر يمكن أن يكون هذا الإنسان ؟
بأى سلطان يفعل ما يفعله ؟
مَن غيرُ الله يستطيع أن يغفر الخطايا ؟ . ولكن يسوع هذا كان له سلطان أن يغفر الخطايا .

لقد روى لنا العهد الجديد كل هذه الأسئلة . كان هناك شىء غريب فى هذا الإنسان حيّر أذهانهم . لقد بدا كأن هناك علاقة مباشرة وخاصة جداً بين هذا المعلم الذى كانوا يدعونه « سيدهم » وبين الله . لقد كان يدعو الله « أباه » ويستخدم أسلوباً دارجاً أشبه بأسلوب الطفل عندما ينادى أباه : « يا بابا » . كان اليهود يخاطبون الله بأنه « أبوهم » أيضاً ، لكنهم كانوا يستخدمون التعبير الرسمى الفصيح . لكن يسوع كان يستخدم اللفظ الدارج « آبا » كما يتحدث الابن إلى أبيه بدون تكليف . وقد زاد من تأكيدهم لهذه العلاقة أنهم رأوا من الله استجابة فورية له ، وكانوا يلاحظون أن الله يبدو حاضراً من خلال المسيح بطريقة يشعرون بها يقينا ،

ولكن كان من الصعب عليهم أن يشرحوها .

لقد بدا لهم يسوع (كمرآة) استطاعوا أن يروا فيها كيف يكون الله . بل أكثر من ذلك ، لقد طبّق هو فى حياته وسلوكه – كل ما كان يقوله لهم عن الله .

لقد حدثهم عن الله أنه يبحث عن الخاطىء ، وأنه يغفر ويقبل من يأتى إليه ، وأنه يرّحب بسخاء وانطلاق عجيب ، بكل من يتقدم إليه ، كالأب فى قصة الابن الضال ، حتى دون أن يعرف إذا ما كان الابن قد قلب صفحة بيضاء فى حياته أم لا . لقد أسرع إليه وقبله قبل أن يكمل كلامه إليه .

بهذا وصف يسوع الله – وقد لاحظ التلاميذ أن يسوع يفعل نفس الشيء – تماماً – كما تحدث عن الله .

إن أسلوب تعامله مع زكا العشار ، مشابه لمعاملة الأب للابن الضال . لقد سمعوه يقول : « اليوم حصل خلاص لهذا البيت ... » (لو ١٩ : ٩) لقد تعجبوا لتعامله مع المرأة الخاطئة بنفس السخاء والانطلاق الذى كان يصف به الله .

ومعايشة التلاميذ ليسوع عرّفتهم الله بصورة لم يستطيعوا معرفتها من قبل طيلة حياتهم فى اليهودية وفى الجليل . لقد كانت فى يسوع شفافية خاصة رأوا من خلالها الله . لقد وجدوا أنفسهم

ينظرون إلى الله بكيفية عجيبة من خلال هذا الشخص . لقد كان الله حالاً وحاضراً فى المسيح وعاملاً فيه بصورة كاملة . أو لقد كان يسوع هو التعبير الإنسانى الكامل لطبيعة الله ومقاصده . لذلك نجد التلاميذ والرسل يكتبون هذه التعبيرات العجيبة نتيجة لاختبارهم العميق .

فنرى يوحنا يكتب : « والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً » (يو ١ : ١٤) .

ونرى بولس يكتب أن : « الله كان فى المسيح مصالحاً العالم لنفسه » (٢ كو ٥ : ١٩) « الذى هو صورة الله غير المنظور » (كو ١ : ١٥) « فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً » (كو ٢ : ٩) . ولقد اختبر التلاميذ محبة المسيح للناس ، فكانت كمرآة تعكس محبة الله ، لذلك كتب بولس قائلاً : « الله بيَّن محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا » (رو ٥ : ٨) .

لقد اختبروا ذلك فعلاً ، وصار هذا الاختبار جزءاً من حياتهم ، وهذا ما كانوا يقصودنه عندما قالوا إن يسوع المسيح هو ابن الله .

ليست ولادة جسدية ، ولكنها ولادة أزلية ، فهو كلمة الله والكلمة – كما يقال – بنت صاحبها ، أى ملازمة له ، وهكذا

المسيح كلمة الله أزلى مع الله .

٢ – كذلك اكتشف التلاميذ شيئاً آخر : ان وجود الله وتعامله معهم ونشاطه الذى ظهر فى يسوع ، لم ينته بعد أن فارقهم يسوع بالجسد . لم يكونوا يعتبرون حياة الرب يسوع بالجسد ذكريات يشتاقون إليها ويتمنون عودتها ويتحسرون على الأيام الحلوة التى مضت ؛ بل بالعكس لقد شعروا أن يسوع لم يفارقهم ... شعروا بوجوده معهم رغم غيابه بالجسد ، بل ربما احسّوا به أقرب إليهم ، وأقوى مما كان فى الماضى وهو معهم بالجسد .

لقد كانوا فى الماضى يحسّون بأنهم غرباء عن يسوع ، ولم يكونوا قادرين أن يدركوا ويفهموا تماماً حقيقة ذلك الشخص العجيب ، أو أن يدخلوا إلى أعماق رؤياه بالنسبة لهم وبالنسبة للجنس البشرى كله ... لذلك كانوا أحياناً يسألونه أسئلة ساذجة ، كسؤال يعقوب ويوحنا أن يكونا عن يمينه وعن يساره ؛ وكسؤال التلاميذ بعد القيامة « هل فى هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل ؟ » ... لقد كانوا يحاولون أن يعرفوا قصده ، لكنه كان يكلمهم بقدر ما كانوا يستطيعون أن يحتملوا فقط . ومرة قال لهم هذا صريحاً :

« إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن

تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك روحُ الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق » (يو ١٦ : ١٢ ، ١٣) .

أما الآن ، بعد مفارقته لهم بالجسد ، فلقد أُحسّوا برباط لا ينفصم يربطهم بشخصه ، وشعروا أن هذا الرباط ينبع من أعماقهم ، من دواخلهم بكيفية عجيبة . لقد تحدثوا عن المسيح الحي ، وشعروا أنه يحيا فيهم . قال بولس : « المسيح يحيا فيَّ » . عرفوا أنهم جسد المسيح وأن المسيح الذى فيهم يربطهم جميعاً معاً كما يربط الرأس أعضاء الجسد معاً .

بل هناك ما هو أكثر روعة من ذلك . لقد اكتشفوا أن هذا الاختبار ، من أنهم صاروا جزءاً من جسد المسيح ، وأن المسيح يحيا فيهم ، لم يكن قاصراً على أولئك الذين عرفوا يسوع بالجسد ، (وإلا فانه كان من الممكن تفسير ذلك بأنها العاطفة والاختبار التاريخى للمسيح والذكريات القوية لحياتهم معه) ، لكنهم ، ولاندهاشهم فعلاً ، وجدوا أن أناساً ممن لم يروا يسوع بالجسد ، ومن أماكن متنوعة ، ومن أنواع مختلفة من التراث ، عندما سمعوا قصة يسوع وآمنوا به اختبروا نفس الاختبار .

كيف يحدث هذا ؟

لقد تذّكر أتباع المسيح أنه وعدهم أن الله سيرسل روحه

القدوس لهم ليكون معهم وفيهم بعد أن ينطلق يسوع عنهم ويفارقهم بالجسد .

كان هذا الوعد مألوفاً لهم ، فقد عرفوا فى نبوات يوئيل أن الله فى الأيام الأخيرة سيسكب من روحه على كل بشر وليس فقط على أناس ممتازين كالأنبياء ، بل سيسكب من روحه على الناس العاديين . وقد كانوا هم من الناس العاديين ، ولقد اختبروا هذا الاختبار ، وفهموا حقيقته إذ امتلكهم روح الله بقوة ، ما كانوا يحلمون بها ، لأول مرة فى يوم الخمسين ، وهكذا اكتشفوا اختبارياً أن الله نفسه ، الذى أعلن ذاته وصفاته فى شخص يسوع المسيح ، هو الذى سكن أيضاً فيهم بروحه القدوس ، وهو يعمل فيهم .

هنا أدركوا معنى التثليث ، لأنهم سبق أن اختبروه فى حياتهم ... وهذا ما يمكن أن يختبره كل مؤمن بالمسيح .

انه اختبار واضح الملامح يتلخص فى الآتى :

١ – إن الرب والإله الواحد للسماء والأرض ، ومصدر كل الأشياء وهدف كل الأشياء ، هذا الإله هو أبعد من ادراكنا ومن قدرتنا على التصور .

٢ – عندما نريد أن نصف طبيعة هذا الإله وهدفه فنحن لا نجد أفضل وصف ملموس لهذا الإله ، إلا إذا ركزنا أفكارنا فى

شخص يسوع المسيح الذى عاش فى فترة ما فى التاريخ على الأرض ، وفى حياته وموته وقيامته كما ترويها كلمة الله .

٣ – لكننا لسنا متروكين فقط للإله البعيد عنا فى السماء ، أو للشخص الذى عبَّر لنا عن صورته وبهائه وعاش تاريخياً فى أرضنا ، لكننا نختبر وجود الله وقربه منا ومحبته العظيمة لنا فى روحه الحاضر معنا دائماً . فالله الذى هو أبعد من الجميع وأعلى وأسمى ، يتجه نحونا فى المسيح ، ويجذبنا نحوه بالروح القدس . لهذا فإن عقيدة التثليث تلخص لنا كل إنجيل نعمة الله .

ثالثاً : معنى الوحْدة الغنية :

قلنا إن هناك نوعاً من التثليث فى فكرتنا عن الله ، فإن الله الذى هو متسامٍ جداً على الجميع وفوق الجميع ، يتجه نحو البشر فى يسوع المسيح ، ويجذبهم نحوه بالروح القدس .

لكن البعض يتساءلون : كيف تكون إذاً الوحدانية مع هذا التثليث ؟

إننا نؤمن يقيناً بوحدانية الله . لكن كثيرين ممن يؤمنون بوحدانية الله ، يلومون المسيحية لأجل ما يظنونه شركاً بالله تعالى ، فهل يا ترى

لهم حق فى هذا النقد أو اللوم ؟

للاجابة على هذا ، ولتوضيح وتأكيد إيمان المسيحيين بإله واحد وليس بثلاثة آلهة ، نقول إن الوحدانية أو التوحيد ليس بالبساطة التى نتصوره بها . صحيح إن هناك فى هذا الكون وحدات بسيطة ، كقطعة من حجر الجرانيت مثلاً فى عالم الجماد ؛ وفى عالم الحياة العضوية نجد الأميبا ذات الخلية الواحدة ؛ لكننا كلما تقدمنا فى عالم الكائنات الحيّة ، وجدنا وحدة ليست بهذه البساطة ، بل أكثر تركيباً أو تعقيداً ؛ ذلك لأن تنوع العناصر التى تتكون منها الوحدة الحيّة يجعل هذه الوحدة مركبّة . وقمة هذا التركيب هو الإنسان . فجميع العلماء يدركون أن الإنسان فى تكوينه العضوى معقّد أشد التعقيد ، فما بالك لو أضفنا إلى هذا أيضاً التعقيدات الناتجة عن حياته العقلية ، وعلاقة العقل بالجسد .

ومع ذلك فنحن نتحدث عن الفرد من البشر باعتباره « ذاتاً مستقلة موّحدة » ، ونصف هذا الفرد بأجهزته المتداخلة والمتشابكة وقواه المتكاملة معاً بأنه « شخص واحد » ، ذلك لأن وحدة شخصية الإنسان ليست مؤسسة على غياب التعدد فى القوى والملكات والوظائف ، بل هى بالأكثر مبنية على الدرجة التى تتوازن بها العناصر المختلفة وتندمج معاً فى علاقات متكاملة . بل ان الإنسان طيلة حياته يضيف إلى شخصيته اختبارات واهتمامات وخبرات متنوعة ،

وكلما ارتقت وتهذبت شخصية الإنسان ، اندمجت واتحدّت فى شخصيته هذه الخبرات والاهتمامات ...

فإذا كانت وحدة الكائن البشري المحدود في الزمان والمكان ، تتكوّن من كل هذا التنوع الغنّى فى العناصر والوظائف ، ألا نتوقع أن تكون وحدة الله سبحانه وتعالى أكثر غنىً وعمقاً وثراءً من الكائن المخلوق .

أيهما أكثر تمجيداً لله ، وأيهما أكثر ملاءمة لجلاله وعظمته تعالى ، أن تكون وحدانية الله فى بساطة الجماد كحجر الجرانيت ، أو فى عزلة وانفرادية الأميبا ذات الخلية الواحدة ؛ أم أن تكون وحدانية الله اجتماعاً متحداً مترابطاً رائعاً عظيماً من الأقانيم ؟

إذا كان الله ، هو الله حقاً ، فلن يدهشنا أن تكون ذاته العليّة ، وشخصيته الفائقة أبعد جداً من قدرتنا على الاستيعاب والفهم ، حتى قال عنه بعض الفلاسفة العرب « كل ما خطر على بالك ، فهو (الله) خلاف ذلك » . بمعنى أنك لا تستطيع فى الواقع أن تتصور شخصية الله على كمالها ، لأنه تعالى أبعد مما يخطر على البال ، فهو تعالى ليس كمثله شيء أو كما قال إشعياء النبى : « بمن تشبهوّن الله » .

وإذا كان شاعر قديم قد قال عن تجميع المواهب والقدرات فى

شخص ما :

وليس على الله بمستكثر
أن يجمع العالم في واحد

فهل نستكثر عليه الله تعالى أن يجمع فى ذاته الواحدة الوحيدة الأقانيم الثلاثة التى تعبّر – بقدر ما نستطيع أن نفهم – عن أبعاد ثلاثة فى التعامل الإلهى مع البشر .

إننا نحاول – بقدر ما تستطيع عقولنا القاصرة – أن نفهم شيئاً عن هذه الشخصية الفائقة الادراك ، ومن اعلانات الله يمكن أن نرى فى الذات الإلهية وحدة ، لكنها ليست وحدة الانفراد والعزلة والمغالاة فى التبسيط ، لكنها وحدة غنية فى اطار الثالوث الأقدس ، الذى ليس له نظير ، وهذا من خصائص الله تعالى ، إنه ليس له نظير أو شبيه .

وكما ذكرنا ، أن قصور اللغة ، وعدم قدرة عقولنا المحدودة بالزمان والمكان أن تدرك ما يتجاوز الزمان والمكان ، لذلك فنحن ندرك وجهاً أو أكثر من الحقيقة ، لكننا لا نستطيع أن نستوعبها كلّها ، وإلا نكون قد استوعبنا الله تعالى ، وهذا مستحيل . وأحياناً ندخل فى جدل بسبب الألفاظ التى سبق أن أوضحنا قصورها عن التعبير ، وننسى المعنى الذى يحمل الفكرة مقرّبةً إلى عقولنا . لذلك فلنفكر

فى المعنى اكثر مما نفخر فى اللفظ . وهذا ما فعله بولس الرسول عندما أراد أن يشرح حقيقة الإله الواحد للوثنيين فى مدينة أثينا . فقد قدم لهم الإله الواحد ، لكنه أظهر لهم الأقانيم الثلاثة دون أن يذكر كلمة أقنوم .

رابعاً : عظة بولس لأهل أثينا كنموذج :

(أعمال الرسل ١٧ : ٢٢ – ٣١)

كان أهل أثينا وثنيين ، يتلمسون طريقهم إلى معرفة الله ، وكانوا يصنعون صنماً لكل إله ، ومع ذلك فقد كانوا يخشون أن ينسوا إلهاً من الآلهة ، فلا يصنعون له صنماً ومذبحاً فيغضب عليهم هذا الإله ، ولذلك صنعوا هيكلاً وكتبوا عليه : « لإله مجهول » .

كان أولئك الناس يريدون أن يعرفوا الله ، لكن دون جدوى ... ربما عرفوا جوانب محدودة من الذات الإلهية ، عبّروا عنها بهياكلهم لآلهة المطر والربيع والخصب والحرب ... ، لكن الله تعالى بالنسبة لهم كان مجهولاً فى جوانب متعددة من شخصيته ، ولقد كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة ، ولذلك أراد بولس أن يقودهم إلى معرفة الإله الواحد المتعدد الأقانيم .

فماذا فعل بولس ؟ إذا قرأنا عظته المشار إليها نرى أنه فعل الآتى :

١ – لقد قدم لهم الله بوصفه :

« الإله الذى خلق العالم ، وكل ما فيه إذ هو ربُّ السماء والأرض ؛ لا يسكن فى هياكل مصنوعة بالأيادى ... كأنه يحتاج إلى شىء ، إذ هو يعطى الجميع حياةً ونَفْساً وكلَّ شىء ، وصنع من دم واحد كلَّ أمةٍ من الناس يسكنون على وجه الأرض ، وحتم بالأوقات المعيّنة وبحدود مسكنهم » (أع ١٧ : ٢٤ – ٢٦) .

هنا نجد بولس يقدّم لهم الإله سيّد البشر ، والأمم ، والتاريخ ، والحياة كلها ... الإله الخالق المنزّه المتسامى عن الكلّ ، والمستقّل عن الكل ، والذى يتعلق الكلُّ به . أليست هذه هى صورة الله التى فى فكر الناس عن الذات الإلهية ... الإله المتعالى ، الذى هو فوق ووراء الخبرة البشرية ، المنزّه المتسامى ؟ لذلك عندما نتحدث عنه نقول « الله تعالى » ، أى الإله المتعالى فوق البشر وفوق ادراكهم والذى لا يخطر ببالنا أن نفكر فيه فى صورة الجار أو القريب أو الصديق الأليف ، إنه مصدر وهدف كل الأشياء وربُّ الكل .

لكن ... هل تعطينا فكرة « الإله المتعالى » صورة كاملة عن

الله ؟ إنها فكرة معنوية غامضة ، أشبه بوصف أرسطو لله أنه « العلّة الأولى » ... وكيف لعقلى المخلوق أن يفكر فى علة العلل ، أو سبب الأسباب ؟ إن بُعد الفكرة عنا يجعلها تبدو وكأنها خالية من المضمون ، إذ كيف نفهم مضموناً لحقيقة ، هى بعيدة عنا كلّ البعد وفوق ادراكنا ؟

إن اقتصار فكرة الله على هذا الجانب المتعالى ، قد يكون تجربة للبشر أن يُخرجوا هذا الإله من نطاق حياتهم ، فيكون الكلام عن الله فى نظر الناس كلاماً أجوف أشبه بالعدم .

لا بُدَّ إذاً أن يكون الله أكثر من مجرد كونه متعالياً ومتساميا ... لا بدَّ أن تكون لذاته الإلهية علاقةٌ قريبة بشكل ما من الناس . وهذا ما أشار إليه بولس فى نفس العظة .

٢ – لقد قال بولس أيضاً عن الله إنه ليس متعالياً فحسب ولكنه أيضاً :

« عن كل واحد منا ليس بعيداً ، لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد » (أع ١٧ : ٢٧ ، ٢٨) .

أى أن هذا الإله يحل فى البشر وملازمهم ، ولذلك فاننا به نحيا ونتحرك ونوجد ... الإله المتعالى فوق البشر ، هو فى نفس الوقت قريب منهم .

ونحن نعلم هذه الحقيقة من اختبارنا ، إن الله أقرب إلينا من أقرب الأشخاص والأشياء ... وجميع الناس يعترفون بهذه الحقيقة ، فالله الذى خلق الإنسان يعلم ما يدور فى نفس الإنسان وهو أقرب إليه من حبل الوريد .

إذاً فالله ليس فقط متعالياً ولكنه قريب ... ليس مجرد معطى الحياة ، بل أيضا هو القوة الفعالة فى الحياة .

هذه الحقيقة التى نصف بها الله أنه القوة الفعالة فى الحياة ، يفسرها الكتاب المقدس أنها فاعلية روح الله ، الذى يحلّ ويسكن فى الإنسان ويلهمه ، وهذا ليس تعطيلاً لقوى الإنسان وملكاته ، إنما حلول الله يقوى هذه الملكات ويثريها ويجعلها قادرة على تحقيق الهدف منها .

وروح الله ، أو الله الروح ، ليس فقط ملازماً للأفراد ، ولكنه ملء كل هذا الكون . وعندما نقرأ الأصحاح الأول من سفر التكوين نعرف أن روح الله كان يرّف على وجه المياه عندما كانت الأرض خربة وخالية ، وهكذا خلق هذه الخليقة ونظمها ودعا كل أشكال المخلوقات المتنوعة والمتعددة .

« ترسل روحك فتخلق وتجدد وجه الأرض » (مز ١٠٤ : ٣٠) .

وإذا أردنا أن نتحدث عن « الروح القدس » بأسلوب عصرى ، فيمكننا أن نقول إنه أعمق قوة دافعة للتاريخ والتطور ، وفيه نرى الخليقة كلها تحيا وتتحرك وتشعر بوجودها .. فالروح القدس هو الله العامل فى الخليقة كلّها .

وهكذا استطعنا أن نرى صيغتين أو صورتين لله : الإله المتعالى . والإله الفعال فى الخليقة والملازم لها . مع ذلك فإن هاتين الصورتين لا تكفيان لاعطائنا الصورة الكاملة عن الله .

ولقد ذكرنا أن فكرة الإله المتعالى قد تبدو لعقولنا خاليةً من المضمون لبعدها عن الادراك .

ونقول أيضاً إن فكرة الإله الفعال فى الخليقة وفى كل الكون قد تواجهنا بأسئلة محيّرة عندما نرى هذه الخليقة تبدو مزيجاً أو خليطاً من النظام والفوضى ... وعندما نرى العالم مزيجاً من الخير والشر ... وعندئذ نتساءل :

كيف يكون الله عاملاً فى الخليقة ، ومع ذلك نرى فى الخليقة ارتباكاً وشراً وفساداً ؟

وما الذى يضمن لنا أن هذا الإله الفعال فينا ليس مجرد شعور داخلىّ لا يعبّر عن حقيقة خارجية مستقلة عنا ؟ أو بتعبير آخر لماذا لا يكون هذا الشعور هو مجرد وعينا بأنفسنا فحسب ، وأن هذا

الإله المتعالى ليس إلا وهماً من تفكيرنا وخيالنا ؟

أليس هذا هو تفكير بعض الملحدين ؟

لا بدَّ إذاً أن يكون لهذه الثنائية رباطٌ يربطها معاً وبالتاريخ وبالحياة وبالأخلاق .

٣ – وهنا نعود إلى قمّة عظة بولس الرسول فى أثينا لنراه يقول ما معناه ان الله قد وضع قِيَماً ومبادىء لهذا العالم لكى يحرره من الفوضى والشرّ ، وأن هناك دينونة للشرّ « لأنه أقام يوماً هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل ، برجلٍ قد عيّنه ، مقدّماً للجميع إيماناً ، إذ أقامه من الأموات » (أعمال ١٧ : ٣١) .

إذاً فمجيء السيد المسيح إلى العالم كشخصية تاريخية كان أمراً ضرورياً ، لأن هذه الشخصية عبَّرت عن صورة الله ومبادئه ومتطلباته من الإنسان ، وكان وجود هذه الشخصية فى التاريخ امراً ضرورياً لتكتمل صورة الله المعلنة للبشر ، وليكون لها فى حياة الناس معنىً وعمقاً .

فهذه الدينونة – التى يتكلم عنها الرسول هنا – والمبنية على حياة ذلك الشخص وتعاليمه وموته وقيامته ، هى رباط يربط العالم المنظور بالعالم الغير المنظور ... ومنها يكمل المعنى الأخلاقى والدينى للحياة .

وستكون الدينونة على أساس القيم التى تركزت فى شخص يسوع المسيح ، الذى فيه تحققت وتبلورت كلُّ نبوات ورسالات الأنبياء قبله .

هذا « الرجل » هو الذى اختاره الله وعيّنه ليملِك مصير كلّ البشر لأنه به سيدين كل المسكونة .

هذا هو الشخص الحاسم ، الذى فيه يركزّ الله ويبلور كلَّ ما يريد أن يقوله للناس ، وكل ما يريد أن يعرفه الناس عن الله ، وفيه يتم انجاز كل عمل الله لأجل البشرية .

كيف يمكن أن يُقال كلُّ هذا عن هذا الإنسان ؟ أو كيف يمكن أن يعمل الله عمله الكامل من خلال إنسان واحد ؟

لقد تجسّد حضور الله ونشاطه بصورة ظاهرة ملموسة فى هذا الإنسان . وكانما الإله المتعالى ، والإله الملازم للبشر والعامل فيهم يقول للبشر :

« إنكم تريدون أن تعرفوا شيئاً عنى وأنا متعال عنكم ... كما أنكم ، وأنتم تعيشون وسط العالم الذى يمتزج فيه الخير والشر ، تريدون أن تعرفوا أى شيء فى هذا العالم مطابق لمشيئتى ، وأى شيء ضدى ومتعارض مع قصدى ... أو بمعنى آخر تريدون التمييز بين الخير والشر ...

إن جوابى مّركزّ ومتبلور فى هذا الإنسان يسوع المسيح
إنكم تستطيعون أن ترونى فيه
هو يخبركم عنى ويعلننى لكم » .

وهكذا نرى أن الإله المتعالى الذى هو فوق ادراك وتصور الإنسان ، والإله العامل فى الخليقة والذى يلازمها بصورة قد تبدو عامة وغير واضحة ، الإله الأبدى الموجود فى كل مكان بكيفية غامضة ، نراه مُعْلَناً فى صورة واضحة للعقل والادراك فى شخص يسوع المسيح .

ويمكن أن نتخذ تشبيهاً بسيطاً للشمس التى ترسل أشعتها الدافئة فوق كل الأرض ، لكنك إذا أخذت عدسة مكبِّرة تستطيع أن تركز بها أشعة الشمس بحيث يمكن لهذه الأشعة أن تشعل النار فى ورقة أو فى أى مادة قابلة للاشتعال تتركز عليها .

هكذا نرى أن الله يرسل روحه على كل الأشياء ، ولكننا فى يسوع المسيح نرى نقطة التركيز التى تشبه النار الملتهبة .. ان يسوع المسيح هو الشخصية التى تبلورت فيها شخصية الله لمجد الله ..

ان الله تعالى فوق التصوّر ، لذلك فنحن لا نعرفه .

والله الحالُّ فينا يسكن داخلنا ، لذلك فنحن لا نراه .

هذا الإله يصير معروفاً لنا ومرئياً لنا فى هذا الإنسان ، يسوع المسيح .

هذا هو التبسيط اليسير لعقيدة العهد الجديد فى الذات الإلهية .

٥

صفـــات الله
وســـــلوك الإنســـــان

لا يمكن أن يكتمل بحثنا عن شخصية الله كما وردت فى الكتاب المقدس دون أن نتعرض إلى أسماء الله أو صفات الله كما أوردها الكتاب . ولا نستطيع أن نتوسع فى هذا الموضوع لأن البحث فى صفات الله ومعانيها ، بحث غنى عميق متسع الأرجاء يمكن أن يقضى الإنسان عمره كلّه فيه دون أن يستنفذه .

إن استخدام أى اسم للدلالة على الذات الإلهية يمكن أن يحمل إلى الذهن البشرى حدوداً لهذه الذات الغير المحدودة ، ولذلك فقد اطلقت على الذات الإلهية أسماء متعددة أغلبها فى الواقع صفات ، وهى فى كمالها ومجموعها ومعانيها المطلقة ، تصف الذات الإلهية التى سبق أن ذكرنا أنها لا تُدرك لأنها تفوق قدرة العقل البشرى على الادراك .

وحتى لفظ الجلالة « الله » الذى نستخدمه فى اللغة العربية للاشارة إلى هذا المعبود المتسامى المنزّه فوق البشر ، إنما هو اصطلاح اتفق الناطقون بالعربية على استخدامه . وبالرجوع إلـ

اللغات القديمة للبحث عن أصل هذا الاسم ومصادره ، قال البعض إنه مشتق من لفظ « إيل » ومعناه (القوى) ، ومنه جاء لفظ (إله) ، وخصص أصحاب عقيدة التوحيد لفظ (الله) لوصف معبودهم ، ليكون متميزاً عمن يعتقد الآخرون بأنهم آلهة .

وقال آخرون إن الاسم مشتق من لفظ (أول) ومعناه (الأول) أو القائد الذى يتقدم دائماً فى الأمام . وفى العبرية استخدم لفظ (إلوهيم) وهو جمع (إلوه) أى إله ، وقد أشرنا من قبل إلى اعتبار هذا اللفظ إشارة قديمة إلى الأقانيم الثلاثة فى الذات الإلهية الواحدة .

أولاً : دلالة الاسم فى التفكير القديم :

قبل أن نتأمل فى أسماء الله ، يجب أن نميّز بين استخدام الأسماء فى وقتنا الحاضر ، وبين استخدامها فى العصور القديمة والظروف التى كتبت فيها أسفار الكتاب المقدس . فنحن فى العصر الحاضر نستخدم الاسم لمجرد تمييز الفرد عن غيره ، حتى لو كانت هذه الأسماء عن غيره، تشير إلى صفات معينة أو لها معان معينة . فإذا دُعِى شخص ما باسم « صادق » أو « ممتاز » أو « كريم » أو « جوهرة » فليس هذا دليلاً على اتصاف الشخص بتلك الصفات أو المعانى .

لكن استخدام الأسماء في الكتاب المقدس كان استخداماً وصفياً وأحياناً نجده استخداماً نبوياً أيضاً . فاسم الإنسان الأول « آدم » يرجح أنه يعنى « مخلوق » أو « من الأرض » لأن الله صنع آدم تراباً من الأرض . وكذلك اسم « حواء » لأنها « أم كل حى » .

وفى القديم كان الفكر الدينى يسيطر على عقول الناس ، لذلك كانوا يطلقون على أولادهم أسماء تنسبهم إلى الآلهة ، أو تعبّر عن شكرهم لهذا الإله ، أو اختبارهم اختباراً معيّناً له ، أو تيمّناً بمناسبة دينية معينة .

فاسم « صموئيل » معناه « اسمه إيل » أى اسمه الله ، تعبيراً عن شكر أمه لله الذى سألته أن يعطيها ابناً . واسم يعقوب معناه المتعقب لأنه جاء ممسكاً بعقب أخيه .

وفى بعض الأحيان كان الأبوان يتوقعان شيئاً معيناً للطفل ، أو بمناسبة ولادته ، فيطلقان عليه اسماً يتفق مع آمالهم وأحلامهم مثل « يوسف » ومعناه بالعبرانية « الرب يزيد » لأن راحيل أمه قالت « يزيدنى الرب ابناً آخر » (تك ٣٠ : ٢٤) . وما زالت هذه العادة موجودة عند البعض فى مجتمعاتنا الشرقية .

وأحياناً أخرى كان الرب يعلن للأبوين اعلاناً معيناً عن مستقبل هذا الطفل ، فيكون اسمه نبوّة عن مستقبله ، وأصدق مثل على

ذلك هو اعلان الله ليوسف ومريم عن ميلاد الطفل يسوع بالقول : « وتدعو اسمه يسوع (أى مخلص) لأنه يخلص شعبه من خطاياهم » (مت ١ : ٢١) . اسم يسوع هو يشوع فى العهد القديم ، وإنما جاءت الترجمة من اليونانية فى العهد الجديد .

وهكذا نرى أن اطلاق الأسماء على الأشخاص فى العهد القديم كان بمثابة تكريس أو صلاة أو انتظارات متعلقة بهذا الطفل .

ومن الأهمية التى كانت تعطى للاسم ، أن تغيير الاسم كانت له دلالة هامة ، كان ذلك يُشير إلى تغيير المستقبل أو المصير ؛ فقد قال الله لأبرام إن اسمه سيكون إبراهيم (أب راهيم) ومعناها أب لشعوب كثيرة وذلك بعد أن وعده الله بذلك . وكان معنى اسمه فى الأصل (أبرام) الأب الرفيع أو المكرم .

وقد غيّر الله اسم يعقوب إلى إسرائيل ومعناه (أمير الله) بعد صراعه مع الملاك .

ثانياً : أسماء الله اعلانات عن ذاته :

من الطبيعىّ إذاً وقد جعل الناس للأسماء أهمية بهذا المقدار ، أن تكون نظرتهم إلى اسم الله أو أسماء الله كلّها ، تقديراً واحتراماً باعتبارها وسيلة للاعلان عن ذات الله تعالى وصفاته وشخصيته .

وليس هذا التقدير منصبّاً على أسماء الله الوصفية فحسب ، بل حتى التعبير « اسم الله » كان يعتبر فى حد ذاته تعبيراً عن عظمة الله وقدرته وسلطانه وجلاله ومجده ونعمته وغفرانه وسائر صفاته .

وعلى هذا الأساس نجد أقوالاً كثيرة فى الكتاب المقدس تمجد « اسم الرب » مثل :

« أيها الرب سيّدنا ما أمجد اسمك فى كل الأرض »
(مز ٨ : ١)

« يهديني إلى سبل البر من أجل اسمه »
(مز ٢٣ : ٣)

« أعنّا يا إله خلاصنا من أجل مجد اسمك ونجنّا واغفر خطايانا من أجل اسمك » (مز ٧٩ : ٩)

وهكـذا ...

وعندما كان الله يعلن ذاته ويمجد ذاته فى عمل ما ، كان الكتاب يعبّر عن ذلك بأن الله « يصنع لنفسه اسماً » . لذلك ورد هذا القول فى سفر إشعياء : « الذى سيّر ليمين موسى ذراعَ مجده الذى شق المياه قدامهم ليصنع لنفسه اسماً أبديًّا » (إش ٦٣ : ١٢) .

وقد جاءت أسماء الله نتيجة لاعلان الله عن ذاته ، أو نتيجةً لاختبار الأنبياء والشعب لصفات الله في تعامله معهم . فعندما ظهر الله لموسى في العلّيقة وأراد أن يرسله لينقذ الشعب من مصر ، وسأله موسى عن اسمه قال : « أهيه الذى أهيه » ومعناه « الكائن الذى كان ويكون » . ومن هنا ظهر اسم « يهوه » وهو تعبير عن « الكينونة » إشارة إلى أن الله حيٌّ موجودٌ بذاته ودائمُ الوجود . ومن فرط تقديس اليهود لهذا الاسم « يهوه » لم ينطقوه بل نطقوا بدلاً منه لفظ « أدوناى » ومعناه السيد أو الرب .

وعندما أعلن الله ذاته لإبراهيم وصف ذاته بأنه « إيل شدَّاى » أى « الله القدير » (تك ١٧ : ١) ، وبعد اختبار إبراهيم لتدبير الله الذبيحة بدلاً من ابنه اسحق أطلق إبراهيم على الله اسم « يهوه يِرْأَهْ » أى الرب الذى يرى أو يدبر . وهكذا نرى ألقاباً وأسماء وصفاتٍ متنوعة يوصف بها الله فى أسفار الكتاب المقدس ، هى تعبيرات عن شخصه وصفاته . وهذه بعضها :

١ – **الصخر** : وقد ورد خمس مرات فى نشيد موسى فى تثنية ٣٢ منها القول فى عدد ٤ « هو الصخر الكامل صنيعُهُ » ، وفى عدد ١٥ « رفض الإله الذى عمله ، وغَبِى عن صخرة خلاصه » ثم فى الأعداد ١٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، كذلك فى إشعياء ٤٤ : ٨ ومزمور ٢٨ : ١ . وهذا اللقب يشير إلى الثبات والاستمرار والحماية لمن يتكلون عليه .

٢ – **القـدّوس** : ونرى هذا اللقب يتكرر بشكل خاص فى سفر إشعياء والمزامير ، ومعنى اللفظ أصلاً « المنفصل » أو « المتميّز » . وهو يشير إلى تجاوز الله تعالى للخبرة البشرية أو المعرفة الإنسانية باعتباره متسامياً أو « Transcendant » فوق الوجود البشرى .

كما أن اللقب يأتى أحياناً مضافاً إلى اسم شعب الله أى « قدوس إسرائيل » وهنا يشير إلى العلاقة الخاصة بين الله وشعبه الذى أفرزه لذاته . فهو قدوس ، قد خصّص لنفسه شعباً مقدساً أى مفرزاً .

(إش ٤٣ : ٣ ؛ ٤٠ : ٢٥ ؛ ٤٨ : ١٧) .

٣ – **العـزيـز** : وأصل معناها القوّى المكرِّم الذى يُعِزّ الإنسان أو يحفظه ويكرمه . ويَرِد هذا اللقب مضافاً إلى اسم الشعب أيضاً مثل « عزيز يعقوب » أو « عزيز إسرائيل » .

(إش ٤٩ : ٢٦ ؛ إش ١ : ٢٤) .

٤ – **العـلىّ** : وهذا اللقب يشير إلى رفعة الله وسمّوه عن كل ما عداه ومن عداه . ومن هذا اللقب اشتق التعبير المشهور « الله تعالى » أو « المتعالى » . « أرعد الرب من السمٰوات ، والعلىّ أعطى صوته ، بَرَداً وجمر نار » (مز ١٨ : ١٣) .

« الساكن فى ستر العلىّ ، فى ظل القدير يبيت » (مز ٩١ : ١) .

وأحيانا يظهر هذا الاسم مرتبطاً باسم آخر من أسماء الله مثل « الله العلى » (تك ١٤ : ١٨) (مز ٧٨ : ٣٥) أو « الرب العلىّ » و فى العبرية « يهوه العلىّ » (مز ٧ : ١٧) .

٥ – الجبّار و ربّ الجنود أو رب الصباؤوت :

فقد كان الشعب العبرانى يقاتل ويحارب وينظر إلى الله كمصدر للقوة فى القتال . وفى المزمور الذى كتبه داود احتفالاً بدخول تابوت عهد الرب إلى خيمة الاجتماع يقول :

« من هو ملك المجد ... الرب القدير الجبار ،
الرب الجبار فى القتال ... » (مز ٢٤ : ٨) .

كذلك عند الاشارة إلى المسيا يقول :

« تقلَّد سيفك على فخذك أيها الجبّار » (مز ٤٥ : ٣) .

وفى مناسبات أخرى قيل « الرب كالجبار يخرج » (إش ٤٢ : ١٣) « الإله العظيم الجبار ربّ الجنود اسمه » (إرميا ٣٢ : ١٨) .

والتعبير « رب الجنود » أو « رب الصباؤوت » (ومعناها جنود في اللغة العبرية) ، يشير لا إلى الجيوش البشرية المحاربة فقط ، ولكن إلى كل القوى الطبيعية والكائنات الأرضية والسماوية التى يستخدمها الله تعالى لتحقيق أغراضه . وهذا واضح مما جاء فى مزمور ١٠٣ : ٢١ « باركوا الرب يا جميع جنوده العاملين مرضاته » . وكذلك ما جاء فى سفر دانيآل ٤ : ٣٥ « وهو يفعل كما يشاء فى جند السماء وفى سكان الأرض » .

ثالثاً : العهد الجديد وصفات الله :

من الملاحَظْ أن العهد الجديد اهتم بالتركيز على صفات الله الأخلاقية أكثر من الصفات الميتافيزيقية ، بل افترضها كأمر طبيعى ، مثل الاشارة إلى أنه « رب السماء والأرض » (مت ١١ : ٢٥) وأن قوى الطبيعة تخضع له (مت ٥ : ٤٥ ؛ ٦ : ٣٠) وأنه قادر على كل شىء ويستجيب للحاجات الإنسانية (مر ١٠ : ٢٧ ؛ ١٤ : ٣٦ ؛ مت ٧ : ٧ – ١٢) وأنه خالق كل الأشياء (أف ٣ : ٩) ومنه تستمد كل القوات والسلطات سلطانها (رو ١٣ : ١) .

لكن العهد الجديد سلَّط الأضواء بشكل خاص على صفات الله الأخلاقية ، وكلُّها مستمدة من حقيقة كون الله أباً وملكاً – فالله ،

فى العهد الجديد ، شخصية روحية ، هو روح « والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا » (يو ٤ : ٢٣ ، ٢٤) ؛ والله نورٌ وحياة (١ يو ١ : ٥ ؛ ١ يو ٥ : ٢٠) . والله محبة « ومن لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة ... ونحن قد عرفنا وصدقنا المحبة التى لله فينا . الله محبة ومن يثبت فى المحبة يثبت فى الله والله فيه » (١ يو ٤ : ٨ ، ١٦) .

وقد احتفظ العهد الجديد بصفات الله التى أعلنها أنبياء العهد القديم ، وهى البرّ والقداسة ، إنما توسّع العهد الجديد فى شرح هذه الصفات من حيث اتجاهها من الله نحو الإنسان ، فى عمل الله الكفارىّ الفدائى بيسوع المسيح ربنا ، وما يتبع ذلك من عمل الروح القدس فى المؤمنين . يقول بولس الرسول « وأما الآن فقد ظهر برُّ الله بدون الناموس ... برُّ الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون » (رو ٣ : ٢١ ، ٢٢) .

ويؤكد العهد الجديد أن برَّ الله المتجه إلى الإنسان هو عمل من أعمال النعمة الإلهية صادر من محبة الله الذى اتخذ المبادرة لفداء البشر ، ليجعل البشر أبرارًا ويوقظ فيهم ، بهذه المحبة . محبةً تتجه نحو الله ونحو الآخرين .

« نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً ... ولنا هذه الوصيّة منه أن من يحب الله يحب أخاه أيضاً » (١ يو ٤ : ١٩ ، ٢١) .

وهكذا نرى أن العهد الجديد عندما يتحدث عن صفات الله ، لا يقدمها كحقيقة فلسفية أو ميتافيزيقية يثور حولها الجدل ، ولكنه يوضّح هذه الصفات من حيث علاقتها بالإنسان ، ويُظهر ما عمله الله لأجل الإنسان ، وما يتوقعه الله من الإنسان . وهذا ما سنوضحه فى هذا الجزء الأخير من هذه الرسالة .

رابعاً : شخصية الله وسلوك الإنسان :

لا نستطيع أن ننهى هذا الفصل دون الاشارة إلى حقيقة هامة ، وهى أن عبادتنا لله ، وتأملاتنا فى ذاته وصفاته ليست مجرد رياضة عقلية أو تأملات نظرية ، إنما هى طريق روحى لتنطبع أخلاق الله وصفاته على حياتنا .

وقد أسعدتنى مقالة قرأتها فى جريدة الأهرام اليومية (٣٠ / ٤ / ١٩٨٤) للأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود عنوانها : « بيّناتٌ من الهدى » جاء فيها أنه شعر بأنه وقع على كنز نفيس عندما وجد كتاباً صغيراً للإمام الغزالى عنوانه : « المقصد الأسنى فى أسماء الله الحسنى » (وأسماء الله الحسنىٰ عند اخواننا المسلمين تسعة وتسعون اسماً هى صفات الله تعالى) .

وقد ذكر الكاتب أنه فرح فرحةً كبرى عندما عرف من ذلك

الكتاب لأول مرة « أن اسماء الله الحسنى ، فضلاً عن كونها صفات ، باستثناء اسم الجلالة (الله) ، فإن مجموعة الصفات المتمثلة فى تلك الأسماء ، هى صفات الله عزَّ وجلّ ، حين تؤخذ بمعانيها المطلقة ؛ ثم هى فى الوقت نفسه ، (الصفات) التى ينبغى للإنسان أن يتحلى بها ، وذلك حين تؤخذ بمعانيها النسبية المحدودة » .

ويقول الكاتب الدكتور زكى نجيب محمود : « عندئذ هتفت لنفسى : إنه إذا كان الأمر كذلك ، كنَّا أمام بيِّنات من الهدى ، تُقام عليها صورةٌ كاملة متكاملة للأخلاق ، كيف ينبغى لها أن تكون » .

لقد قرأت هذا الفكر الناضج ، وبشيء من التأمل والمقارنة ، انكشف أمامى جوهر الرسالة المسيحية ، فالكتاب المقدس يطلب من المؤمنين أن يكونوا كأبيهم السماوى ، وأن يكونوا قديسين لأن الله تعالى قدوس (١ بط ١ : ١٦ ، ١٧) .

والسيد المسيح عندما يطلب من تلاميذه محبة الأعداء والغفران للمسيئين ، يضع أمامهم صورة أبيهم السماوى الذى يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين ، ويقول لهم : « لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السمٰوات ... كونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السمٰوات هو كامل » (مت ٥ : ٤٥ - ٤٨) .

إلا أن العهد الجديد عندما يطلب منا ذلك ، لا يضع أمامنا هذا النوع من الحياة كمجرد هدف أخلاقى نسعى إليه ، ذلك لأن الكتاب فى واقعيته وتحليله لطبيعة النفس الإنسانية وضعفها يقرّ بعجز الإنسان وقصوره وعدم قدرته بالطبيعة أن يصل إلى هذا الهدف من ذاته ؛ فكيف يستطيع الإنسان الضعيف المحوط بتجارب وضعفات ، أن يتطلع إلى صورة الله الكاملة ويسعى نحوها دون أن يشعر باليأس والقنوط ؟

هنا تظهر روعة النعمة الإلهية التى تفاضلت فى شخص المسيح له المجد ، لتعطى للإنسان فرصة التغيير أو التجديد ، بالإيمان بفداء الرب يسوع المسيح . هذه الخليقة الجديدة التى تتم بعمل الروح القدس فى الإنسان ، أى بعمل الله فى داخل الإنسان ، هى الطريق الذى يجعل الإنسان ينمو فى طريق المشابهة لأبيه .

فالله الآب ، باعتباره أباً ، يلدنا ثانية أى يخلقنا خلقاً جديداً بكلمة الحق .

والله الابن ، الرب يسوع المسيح ، باعتباره بهاء مجد الله ورسم جوهره ، يعلن لنا حبَّ الآب لنا ، ويصالحنا بموته مع الآب ، ويعرّفنا به لندخل نوعاً جديداً من الحياة ، هى الحياة الأبدية ، التى فيها ننمو ونتقدم فى حياة القداسة .

والله الروح القدس ، يسكن فينا ، ويطبع أخلاق الله أو فضائل الله على حياتنا ، أو يختم حياتنا بختم الله .

بهذا يتصوّر المسيح فينا ، فنكون خليقة جديدة ، قد زُرعت فينا بذرة الحياة ... بذرة أخلاق الله ، وعلينا أن نجاهد لنصون هذه البذرة مستخدمين وسائط النعمة ، لننمو أو لتنمو هذه البذرة فينا .

بهذا النور نستطيع أن ندرك أعماق كلمات الرسل فى العهد الجديد ، كقول يوحنا الرسول : « انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أولاد الله . أيها الأحباء الآن نحن أولاد الله ، ولم يُظْهَرْ بعد ماذا سنكون . ولكن نعلم أنه إذا أُظْهِر نكون مثله ، لأننا سنراه كما هو . وكلُّ من عنده هذا الرجاء به يطهّر نفسه كما هو طاهر » . (١ يو ٣ : ١ – ٣) .

وكقول بولس الرسول : « لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعيّنهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه » (رو ٨ : ٢٩) .

ويقول بطرس الرسول : « كما أن قدرته الإلهية قد وهبت لنا كل ما للحياة والتقوى بمعرفة الذى دعانا بالمجد والفضيلة اللذين بهما قد وهب لنا المواعيد العظمى والثمينة ، لكى تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية هاربين من الفساد الذى فى العالم بالشهوة » (٢ بط ١ : ٣ ، ٤) .

ويخاطب بولس الرسول أهل أفسس بقوله : « إذ آمنتم ختمتم بروح الموعد القدوس الذى هو عربون ميراثنا » (أف ١ : ١٣ ، ١٤) . أى أن هذا الخَتْم عربون أو مقدمة لبركات ثمينة هى فضائل الله لنا وفينا . وبعد أن يحذرهم من بعض الضعفات والخطايا يقول لهم : « ولا تحزنوا روح الله القدوس الذى به خُتِمتم ليوم الفداء » (أف ٤ : ٣٠) .

وهكذا نرى أن الإنسان الذى خُلِق على صورة الله فى البرّ وقداسة الحق ، عاقلاً حرًّا مختاراً ، إذ فقد هذا البر بدخول الخطية إلى قلبه بعصيان الله ، وتشوهت صورة الله فيه ، وأصبح يميل إلى عمل الشر بشهادة التاريخ والواقع والكتاب ... هذا الإنسان يمكنه أن يستعيد تلك الصورة – صورة الله – بالخليقة الجديدة بالروح القدس المنسكب فى قلبه أى فى حياته من أعماقها ... أو بمعنى آخر يتفتح قلبه لمحبة الله التى ظهرت فى المسيح وفى الصليب ، وبذلك يستيقظ فيه تيار الحياة الجديدة ، وبقدر اتصاله بالله ، واعتماده عليه ، وشركته معه ، ينمو شيئاً فشيئاً فى معرفة الله واختباره ، وينتصر شيئاً فشيئاً فى الصراع بين قوى الشر وقوى الخير التى تتنازعه ، وهكذا يسير فى طريق القداسة أى المشابهة لله .

هذا هو نداء الله الدائم لجميع الناس .

وهذه هى دعوة الله المقدّمة إلى الكلّ .

فمجداً لإلهنا ، ما أعظمه ، وما أكرمه ، وما أمجده !!!

ربى إلهى أبدعتَ الوجودا
جمالُ هذا الكون من غناك
ما أن أراه أنحنى سجودا
من مجد ما قد أبدعت يداك

* * *

زان السماء بالنجوم ربى
والأرض بالأزهار والأطيار
كسا التلال منعماً بالعشب
من جوده قد فاضت الأنهار

* * *

جاء ابن الله راضياً بالصلب
والموت عنى رافعاً حملى

يا عجبى من فرط هذا الحبّ
تجسّد ابن الله من أجلى

* * *

فوق السحاب ربُّنا سيأتى
يا بهجتى نفسى قد امتلك
فى مجده أبقى مدى الأبد
ترنيمتى « ربى ما أعظمك » !

* * *

نفسى تشيد ربى مخلصى
ما أعظمك ! ما أعظمك !

إن الاعتقاد بالله هو جوهر الدين، وفكرة
الإنسان عن هذا الإله تحدد أسلوب حياته
والفرق بين أنواع سلوك الناس يرجع إلى
حد كبير إلى عقيدتهم
في طبيعة الإله الذي
يعبدونه

فايز فارس

دار الثقافة